
روايات مصرية للجيب
38
أسطورة
ما وراء الطبيعة
النصف الآخر
Looloo
www.dvd4arab.com

مقدمة

ها نحن أولاء نلتقى من جديد ، ولكن مع شىء من الغرابة .. لقد تحدثنا فى القصص السابقة عن كل الأشياء الكريهة على غرار (هو) - الذى يمشى فى الظلال - والدمى المسحورة اللعينة ، وفصائل الفازيين التى لا ترضى بأن تموت بسهولة ، وكل الهراء من هذا النوع ..

حسن .. يبدو أن الوقت قد حان لنتحدث عن أشياء غريبة .. هناك أشياء كريهة وأشياء رهيبة وأشياء خارقة للعادة وأشياء غريبة ، وقد اخترت اليوم القائمة الأخيرة ..

أغلقوا باب السرداب وتأكدوا من أن الأشباح لن تغادره .. أغلقوا المزلاج بإحكام وتعالوا هاهنا ..

تعالوا إلى العجوز (رفعت إسماعيل) ، أستاذ أمراض الدم المتقاعد وهاوى الأشباح الذى أرغمه كل شىء على هذه الهواية ..

هل ستقرءون هذه القصة فى الشتاء ؟ إذن

أضرموا النيران فى الموقد ـ المدفأة ـ الراكية واكمشوا جيدًا لتنعموا بالدفء ..

هل ستقرءونها صيفًا ؟ إذن أغلقوا النوافذ بإحكام .. إن شخصًا حيًا يغمره العرق لخير من جثة باردة ..

والآن هل استعددتم تمامًا ؟

أرجو ألا ينهض أحدكم فجأة ليشرب كوبًا من الماء أو .. أو .. لأن هذا يقطع حبال أفكارى كما تعلمون ..

سأحكى لكم حكاية النصف الآخر ..

* * *

الفصل الأول : لا أهمية له سوى الحشو ويمكن لسريعى الملل أن يبدءوا بالفصل الثانى

قالت (نجلاء) :

ـ « الواقع يا د. (رفعت) أن ما أشعر به لا يتجاوز مجموعة من الخواطر واللمحات والانطباعات التى قد تكون حقيقة ، وقد تكون وليدة خيال امرأة لم يتعلم قط كيف يهمد أو ينام ..

« إن لكل قصة بداية .. ومن الخطأ أن نقلب الغلاف الأخير كى نعرف النهاية لأن مبرر وجود القصة يتلاشى بهذه الطريقة .. وبدايتى كما تعلم كانت فى (القاهرة) .. فى (شبرا) بالتحديد .. »

« إن أبى موظف بسيط من تلك الطبقة التى نعتبرها (مستورة) .. فهو لم يرنا مذاق الثراء لكنه ـ أيضًا ـ حمانا من لدغة الجوع ، وكان أبًا من الطراز الذى يمكن أن تضعه فى القاموس ، وجواره سهم يشير إليه مصحوبًا بكلمة (أب) .. هل تعرف

جيل الآباء ذوى الشارب الكث والبطن الكبير ، الذين يعودون للدار ظهرًا حاملين الجريدة والبطيخة ، والعرق يسيل على صلعتهم ؟

وتكون أمى - الريفية البارة - قد أعدت طعام الغداء ، فيلبس جلبابه ويصلى الظهر ثم نحتشد حول الطبلية .. كنا من الطبقة التى تملك مائدة طعام ، لكنها تفضل الأكل على الطبلية . ولم تكن مائدة الطعام تستخدم سوى للاستذكار .. هل تعرف هذه الطبقة ؟ حسن !

بعد هذا يجلس أبى فى الشرفة مستمتعًا بفرد ساقيه على البلاط البارد ، وتأتى أمى بصينية بها البطيخة مقطعة ، فيبدأ فى التهامها ولا ينسى أن يحتفظ بالبذور السوداء ، فهى تتيح لهما ساعات متعة لا بأس بها فى أمسية صيف أخرى ..

« بعد هذا يتجشأ مرة أو مرتين ، ويعلن أن ميعاد النوم قد حان .. كنا فى ذلك الزمن السعيد حين كان الناس ينامون عصرًا ، ولا ينزلون إلى الشارع بحثًا عن عمل جديد لزيادة الدخل .. »

« وهكذا .. يجرع جرعتين من القلة الموضوعة

على السور ، والتى نقعنا فى الماء المحيط بها بذور المشمش لتلين ، ثم يعلن من جديد أن وقت القيلولة قد حان .. صحيح أننى و (ناهد) لا نرغب فى النوم .. صحيح أننا مليئتان بالطاقة راغبتان فى مزيد من اللهو ، لكن كلمة أبى هى حكم لا يرد .. »

انتهيت من رشف قدح القهوة ، وبحرص وضعته على الزجاج .. ثم سألتها وأنا أعود إلى استرخاء جلستى :

- « (نجلاء) .. حين جئت هاهنا كنت أحسب أنك تدخرين لى ما هو أكثر من انطباعاتك عن طفولتك .. »

بدورها جرعت من مشروب المياه الغازية .. ولاحظت أنها تجرع جرعات أكبر مما ينبغى لفتاة .. لا بد أنها ستتجشأ الآن ..

بالفعل تجشأت ، لكن داخل فمها المغلق ، فانتفخ خداها للحظة .. ثم قالت :

- « إننى سمعتهن يقلن ما هو أكثر وأطول فى برنامجك (بعد منتصف الليل) ، ولم تعترض وقتها .. بل قلت إن كل هذا يضعك فى الجو .. »

بحثت عن رد يفسر هذا التناقض ويحرجها ، فلم

أجد .. لذا آثرت الصمت ، وأشرت لها كى تستمر فى قصتها ..

قالت :

- « بعد هذا التحقنا بالمدرسة .. وكنا ...... »

* * *

وكعادتى قمت بضبط ساعتى على ردود فعل منتظمة كلما مضت دقيقة أو دقيقتان .. على غرار (مم ؟) .. (هم م م ؟) .. (آ ه !) (هم ؟) .. (هاها) .. مما يوحى لها بأننى أتابعها بدقة .. وشرد ذهنى ..

بدأ الأمر بمكالمة هاتفية من د. (محمد شاهين) .. هل تذكرون أستاذ (الأنثروبولوجى) طبيب القلب الذى عرفته بسبب سوء فهم قاتل فى قصة (آكل البشر) ؟ لقد كدت أضربه وقتها ، ثم انعقدت بيننا صداقة حميمة إلى حد ما .. فنحن فى عالم لا يحوى أنصاف الحلول .. إما أن تكون ظالمًا أو مظلومًا ، سارقًا أو مسروقًا ، خادعًا أو مخدوعًا .. لهذا وجدت أننى أميل إليه لأنه - (محمد شاهين) - مظلوم مخدوع مسروق دائمًا ..

أعرف أن الشخصية القويمة هى التى لا تظلم ولا تظلم .. لا تخدع ولا تخدع .. لا تسرق ولا تسرق .. لكن أين هذه الشخصية اليوم ؟

لهذا وجدت أننى أميل إلى مصادقة العصفور وليس الأفعى ..

تلقيت منه مكالمة هاتفية ، قال فيها إنه بحاجة إلى مشورتى ..

- « لماذا يا أبا حميد ؟ »

- « إن الأمر يتعلق بابنة أختى .. (نجلاء) .. »

وكنت أعرف أن له أختًا جاءت من قريته مباشرة إلى بيت زوجها فى (شبرا) .. وهى فلاحة طيبة باسلة لا تعرف شيئًا عن أى شىء ولا يهمها معرفته ..

- « خيرًا ؟ هل هى مصابة بسرطان الدم ؟ »

ثم اعتذرت عن هذه الغلطة فى التعبير .. فلماذا يطلب أحدهم رأى طبيب أمراض دم إذن ؟ ثم اتضح لى أن الفتاة تريد الجانب الآخر من شخصيتى : صائد الأشباح الهاوى ..

وعرفت أن (نجلاء) فى الثالثة والعشرين من

عمرها .. غير متزوجة .. تخرجت فى كلية الحقوق .. تتدرب فى مكتب محام شهير بلا أجر .. وظروفها المادية لا تفوق ظروف أية فتاة أخرى فى ظروفها !

قال لى (محمد شاهين) :

ـ « إن (نجلاء) تعانى مشكلة معينة .. ولن أستطيع الكلام أكثر فى الهاتف لكننا بحاجة إلى معرفة رأيك .. هل الأمر يقع فى دائرة الخوارق .. أم فى دائرة الأمراض النفسية ؟ »

ابتسمت وقلت متخيرًا ألفاظى :

ـ « لا بد أن (الحاجة) أختك قد قامت بعمل اللازم فى هذا الصدد .. ولا بد أن شيوخًا كثيرين من طراز (الهدهد المصاب بالبواسير) قد رأوا الفتاة .. »

ضحك طويلاً فى سماعة الهاتف ، ثم قال :

ـ « أنت محق فى استنتاجاتك كالعادة .. لكنهم جميعًا فشلوا حتى إن أختى صارت ـ مع كثير من الامتعاض ـ على استعداد لسماع رأى أمثالك .. »

ـ « إن هذا يملؤنى قلقًا .. لكنى بحاجة لأن أرى الفتاة .. »

ـ « هل أنت فى القسم غدًا ؟ »

ـ « نعم.. وليكن هذا فى الحادية عشرة صباحًا.. »

بعد قليل من الصمت ، سألنى فى توجس :

ـ « أ .. (رفعت) هل سرطان الدم احتمال وارد حقًا ؟! »

هنا صعد الدم إلى رأسى ، ووضعت سماعة الهاتف حتى لا أنفجر فى وجهه .. إن هذا الرجل لن يكف عن السذاجة .. كأنها واجب مقدس !

* * *

وطبعًا ـ لكم أن تراهنوا على ذلك ـ كنت قد نسيت كل شىء عن الموضوع فى الموعد المحدد .. إلى أن انفتح باب مكتبى ليدخل (محمد شاهين) بوجهه المبتل عرقًا ، ويلثمنى مائة مرة على خدى .. ثم يلتقط أنفاسه وقد كاد يصاب بنوبة قلبية ، ثم قدمنى إلى (نجلاء) ..

وكنت قد كونت فكرة مسبقة ـ لم تخطئ كثيرًا ـ عن مظهرها ، فـ (محمد شاهين) لا يمكن اتهامه بالجمال ، وكذلك أخته بالتأكيد ..

إذن لن تكون (نجلاء) بارعة الحسن أبدًا ما لم يكن أبوها فى جمال أبطال الأساطير الإغريقية ..

وكانت (نجلاء) متوسطة الجمال حقًا ، لكن لها ذلك الوجه المريح الذى يبعث فى نفسك الشعور بأنك تعرفها من قبل ، مع مسحة الاحترام والوقار النفسى مما يشى بأصل طيب .. (بنت ناس) حقيقية رباها آلها جيدًا ..

دعوتها للجلوس ، وطلبت العامل كى يحضر زجاجة مياه غازية وقدحى قهـ ......

– « بل قدح واحد يا (رفعت) .. فأنا سأنصرف لأن عندى محاضرة .. ثم إن انصرافى سيتيح لها حرية الكلام .. »

– « كما تحب .. »

وسرنى التخلص منه لأنه سيزيد الأمور سوءًا ، ولن يترك لها الفرصة كى تقول كلمة مفهومة واحدة ..

بعد هنيهة صمت سألتها كى لا تنهمك فى التحديق فى البساط إلى حدّ إحداث ثقب به :

– « يمكنك الكلام إذن .. »

هنا جلب لنا العامل ما طلبنا ، ورمق الفتاة بنظرة خبيثة كأنه قد فهم كل شىء ، وكاد يغلق الباب علينا

عند انصرافه لولا أننى (شخطت) فيه .. لا أحب التذاكى ولا المتذاكين أبدًا ..

عدت أسألها عن قصتها ، وأنا أرجو أن ينتهى هذا الهراء سريعًا ..

قالت وهى تتحسس زجاج مشروبها البارد فى شرود :

– « د. (رفعت) .. هناك من يتألم ويفرح ويحلم بدلاً منى ! »

* * *

الفصل الثانى : لا أهمية له سوى التطويل ويمكن لسريعى الملل البدء بالفصل الثالث

« فليكن ذكرًا يا ربّ .. ثم ليكن ما يكون بعدها »

لا بد أن عبارة كهذه كانت تتردد فى ذهن الأستاذ (عبد الجوّاد) ، وهو ينتظر قلقًا فى الصالة خارج غرفة النوم، لفافة التبغ توشك على أن تحرق أنامله ، بينما الصرخة الطويلة المعذّبة تدوى من وراء الباب المغلق .. والداية (أم أيمن) تصاحب هذا بإيقاعها الخاصّ (يالله ! خليكى تخلصى !) .. فتزداد الصرخات شراسة ، ويضع د. (محمد شاهين) شقيق زوجته كفه على معصمه يدعوه للهدوء ..

الصالة كئيبة ضيقة ، تتناثر الأطباق على مائدة الطعام .. فقد باغتت آلام الولادة الأم وهى تلتهم عشاءها ، وكانا فى ذلك الزمن حريصين على تناول العشاء على المائدة ، قبل أن يصنع له الأسطى (طه) تلك الطبلية العتيدة التى صارت ملتقى الأسرة .. فى كل ركن من الصالة تجد منشفة ملقاة ، أو سروال

منامة خلعه وهو يرتدى ثيابه على عجل ، أو خرقة لا تدرى دورها بالضبط لكنها هناك ..

من المطبخ تهرع (أم بلبل) حاملة وعاء الماء الساخن ، متجهة إلى غرفة النوم .. لا ولادة دون ماء ساخن كما أنه لا حافلة دون نشال .. ويستمر الصراخ .. ثم يدوّى صوت عواء المخلوق الصغير الذى - لأول مرة من تسعة أشهر - يُطرد من دفء الرحم وظلامه المريح للأعصاب ..

وتخرج الداية بوجه مكفهر بعض الشىء لتصارح الأب بأنه رُزق بطفلة حسناء .. لا .. بل بطفلتين ! لقد كانت المرأة حاملاً فى توءمين ..

إن الأمور تسير هكذا دومًا .. أكثر الرجال ولعًا واشتياقًا لإنجاب الذكور يلقون عقابهم فورًا .. لكن (عبد الجوّاد) كان فى حالة تفكك نفسى وجسدى كامل ، فلم يجد فى روحه ما يسمح بالشعور بخيبة الأمل ، بل وجد الدموع ولا شىء سواها ..

طفلتان ! مصيبتان على الأرجح ، لكنه سيجد الوقت الكافى للأسى فيما بعد ، أما الآن فالمهم الاطمئنان على البائسة الغالية ..

وكانت المرأة بخير . وقد راحت (أم بلبل) تردد عبارات التهنئة الممزوجة بالعزاء ، وتمليه قائمة لا بأس بها بلوازم المولودتين .. كان هذا عصرًا لا يعيش الطفل فيه ما لم يشرب المحيطون به (المغات) .. ولا تعيش النفساء ما لم تلتهم ثلاث دجاجات يوميًا ..

وكان (عبد الجواد) يعرف كل هذا ، وقد أعد كل شىء للحصول على نصيبه فى الجمعية التى نسقها مع زملائه فى العمل ، ويتقاضاه فى هذا الشهر بالذات .. إن أربعين جنيهًا لمبلغ فادح حقًا يسمح بشراء كل ما يحتاج إليه الموقف ..

وتسأله الداية عن الاسم الذى سيختاره للتوءمتين، فيقول دون استشارة الزوجة (وهذا شىء طبيعى .. إنه هو الأب فما دخل الأم فى الموضوع ؟) :

- « سيكون اسم واحدة (نجلاء) والأخرى (ناهد).. ولكن كيف أميز بينهما ؟ »

لكن حين رأى الرضيعتين أدرك أن سؤاله لا مجال له ها هنا ، فالتوءمتان غير متشابهتين .. وكانت واحدة منهما تملك وحمة كبيرة فى فخذها ، ولها

رأس مستطيل غريب الشكل .. أما الأخرى فكانت حسناء لو أمكننا قول هذا عن رضيع ملوث بالدم ، ما زال وجهه مجعدًا كقرد صغير ..

ذات الرأس المستطيل ستحمل اسم (نجلاء) .. أما الأخرى فستحمل اسم (ناهد) .. لم يكن ضليعًا فى اللغة العربية ، لذا افترض أن اسم (ناهد) يوحى بجمال أكثر مما لاسم (نجلاء) .. ثم إن تماثل حرفى (النون) بدا له موسيقيًا إلى حدّ لا يوصف ..

وراح يلوك الاسم بين شفتيه كمن يتلمظ :

- « (ناهد عبد الجواد) .. (نجلاء عبد الجواد) .. لا بأس .. لا بأس على الإطلاق ! »

* * *

وواءءء ! ووواءء !

وحتى فى ساعات الفجر الأولى ..

* * *

تقول (نجلاء) :

- « لم تلحظ واحدة منا شيئًا غير معتاد فى حياتها .. »

لقد كبرنا كأى توءمين آخرين .. ولم يكن


أما (ناهد) فاتخذت نموذج الحسناء العابثة خالية الرأس ، التى تعيش أتعس لحظات حياتها أمام الكتاب ..

بيننـا تشابه لهذا نجونا من الملحوظات السخيفة المعهودة لدى الكبار ، ولم تحتر المعلمات بشأننا ، ولم تحاول أمى أن تميزنا بعلامة ما ..

وكما هى العادة ، تشابهنا فى بعض الصفات .. لكن اختلافنا كان أشدّ ، وهذا طبيعى لإظهار التضادّ بيننا .. إن اللون الأسود لا يصير أسود إلا لأن هناك أبيض .. والسماء ليست سماء إلا لأن تحتها أرضًا .. هذا طبيعى ..

من البداية بدا للقوم أننى اتخذت نموذج الفتاة الذكية اللامعة المنكبة على دروسها ، لكنها متوسطة الجمال منطفئة تمامًا اجتماعيًا ، وبكثير من العسر يمكنها أن تنطق ثلاث كلمات ذات معنى ..

أما (ناهد) فاتخذت نموذج الحسناء العابثة خالية الرأس، التى تعيش أتعس لحظات حياتها أمام الكتاب، وتلقى - برغم هذا - كل تدليل المعلمات .. إن المعلمات يتصرفن بطريقة مختلفة مع الطالبة الجميلة مهما بلغ غباؤها ، ومهما بلغ حبهن للعدل ..

وهكذا .. كنت أحظى أنا بالتشجيع الدراسى بينما تحظى هى بكل شىء آخر .. وفى المنزل كان لها

مكان خاص ومنزلة متميزة لدى أبى .. وكان يقول لها فى غضب مصطنع :

- « ليت لك ربع عقل أختك ومثابرتها .. »

لكن وجهه كان يقول العكس .. كان يقول إنه حقًا ليس غاضبًا تمامًا كما يدعى .. كان يقول إنه - كأكثر الرجال - لا يؤمن بأهمية عقل المرأة .. المهم هو وجهها .. وفى هذا الصدد نالت (ناهد) درجة الامتياز أما أنا فنجحت بصعوبة ..

وأحصل على درجة ٩٧ بالمائة فى الشهادة الابتدائية ، بينما تحصل هى على ٧٦ بالمائة ..

تزغرد أمى وتوزع أكواب (السوبيا) الباردة على الجيران ، وتقول كأنما تمدحنى :

- « إن (نجلاء) تملك عقل رجل ! »

فتقول الجارات الشمطاوات :

- « و (ناهد) تملك وجه امرأة .. ثم إنها لم ترسب .. لقد نجحت نجاحًا لا بأس به أبدًا ! »

كنا طفلتين بينما هذه المشاعر تمزق روحى ..

الآن دخلنا مرحلة المراهقة ، فكيف بذات المشاعر إذن ؟

كلا يا د. (رفعت) .. لا تظلمنى .. أنا لم أحسد أختى ولم أتمن قط أن يحترق وجهها بالحمض مثلاً .. كما لم أتمن أن يكون لى وجهها .. كل ما هنالك هو أننى شعرت بنفاق وغباء هذا المجتمع الذى يحكم على الناس بمجرد النظر لوجوههم .. يمكنك - وأنت لست جميلاً يا د. (رفعت) - أن تبرع فى عملك ، وأن تكون طاهرًا ساميًا ذكيًا ، وأن تضحك للجميع وتغسل وجهك كل صباح ، لكنهم - صدقنى - لن يضعوك أبدًا فى مكانة د. (رأفت) زميلك هاهنا .. و (رأفت) هذا لا يملك أية موهبة سوى ملاحة قد لا يستحقها ..

* * *

كانت (ناهد) حمقاء ، وحسبتُ أن مهمتها الوحيدة فى الكون هى استعراض جمالها الفاتن .. أما أنا فكنت كالقطار السريع لا أعرف لى طريقًا خارج القضيب الحديدى الواصل بين بيتى والمدرسة ، أقطعه فى دقائق وأنا أنظر إلى قدمىّ ، فلو استبدلوا بحرًا بشارع (شبرا) لما لاحظت ذلك ، لكن (ناهد) كانت ستلاحظ حتمًا ..

وفى المنزل بات واضحًا أن (ناهد) ستتزوج قبلى.. فى الغالب بعد إنهاء دراستها الثانوية ، لأنها ليست من الطراز المناسب للتعليم .. ثم إن الخطّاب بدءوا يفدون إلى دارنا وهى بعد فى السنة الأولى من المدرسة الثانوية !

وهو حدث جلل كفيل بجعل صاحبته ملكة متوجة فى المدرسة الثانوية ، حيث لا كلام لدى البنات المفعمات بالأحلام إلا عن هذا اللغز الأسطورى الرهيب : العريس ..

وفى الصف كانت (ناهد) قد أنشأت لنفسها عصابة صغيرة ، من الفتيات المدركات لجمالهن ، وكن يجلسن فى نهاية الفصل يمارسن حيلاً صغيرة على المدرّسين ، أو يمزحن بصوت خافت ولا يتابعن حرفًا مما يقال ..

أما أنا فكنت أجلس فى موضع متقدم .. وأثبت ذاتى بأن أكون أفضل وأذكى ، ولا أترك سؤالاً يلقيه المعلم إلا أجبته .. عندها كان ينظر للصف الخلفى ويقول فى تهكم :

- « ليت لك ربع عقل أختك يا (ناهد) .. »

فيجىء صوتها الضاحك من خلفى :

- « لقد اختارت هى العقل واخترت أنا الجمال ، ولم يعد بوسع واحدة منا أن تتراجع ! »

فيهزّ المعلم رأسه .. إنه يخجل طبعًا من أن يعترف بصحة هذا .. لكنه يرى ويعرف جيدًا .. لقد تقاسمنا كل شىء كما تقول (ناهد) ولا يوجد تفسير آخر ..

* * *

لكننا لم نتشاجر قط ، ولم نكن قطًا وفأرًا كما تتصوّر ..

كنا شقيقتين .. صحيح أننى كنت أملك صديقاتى وكانت هى تملك صديقاتها ، وكان لى عالمى وكان لها عالمها .. لكننا - فى موعد الانصراف - كنا ننصرف معًا ، ليبدأ الجزء الثانى من يومنا .. خاليًا من الضغائن لكنه - كذلك - خال من المودّة الحارة .. إن السلام لا يعنى الحبّ دائمًا .. قد يعنى (عدم الحرب) كذلك ، وكان هذا هو السلام السائد بيننا ..

ثم دارت الأيام - التعبير المبتذل القديم - حاملة لنا

بعض المسرات المحدودة كأخ ذكر جاء على غير موعد ، وبعد أعوام طويلة من عدم الإنجاب .. أى أننى أكبر هذا الأخ بخمسة عشر عامًا أو أكثر قليلاً ، وكانت هناك بعض الأحزان التى لا تخلو منها حياة أية أسرة كوفاة عمتى ، وإصابة أبى بنوبة قلبية شفى منها لكنه لم يعد قط كما كان .. وكانت فكرة طفله الصغير جدًا الذى يوشك أبوه على الرحيل تؤرق أبى كثيرًا ..

- « أولاد الشيب يتامى ! »

هكذا كان يردد دائمًا وهو يرمق الصغير يقرقر ضحكًا ، أو يهرول فى الصالة بمشيته الحديثة المضحكة المترنحة ..

والآن انتهت دراستنا الثانوية ، ولم يكن ما حققته فيها يماثل ما انعقد علىّ من أحلام .. ربما كان اضطراب حالتى النفسية أو اضطراب الظروف هو السبب .. كنت أتمنى أن أكون مهندسة لكن لم تبق لى سوى كلية الحقوق ، وشتان بين أن تدخلها لأنك تحب القانون وأن تدخلها لأنه لا يوجد سواها ..

أما عن (ناهد) فمن الطبيعي أنها رسبت .. كلنا كنا نعرف ذلك وننتظره كى تبدأ الجزء الثانى من حياتها ..

- « إن (ناهد) لا تصلح لتلقى العلم .. دعونا نزوجها إذن »

قالها أبى كأنما يضيف جديدًا ، وكأن هذا لم يكن مخطط حياة (ناهد) منذ كانت فى السادسة من عمرها ..

وينفتح الباب ليدخل (محمود شهاب) .. مهندس فى الثلاثين من عمره .. له ملامح (رشدى أباظة) لو أن هذا الأخير كان أحول العينين قليلاً ، ولم يكن من هذا الطراز الحديث الباحث عن عقل المرأة ، أو المؤمن بدور المرأة فى المجتمع .. كان يريد زوجة تسرّ عينيه وكفى .. والحق أنه كان أحمق .. إن (ناهد) لا تصلح زوجة على الإطلاق .. إنها لوحة جميلة يعلقها فى غرفة الصالون لا أكثر ، وعليه بعد هذا أن يبحث عن زوجة حقيقية !

لكن (محمود) تزوّج (ناهد) .. وكان بيتهما السعيد فى (حلوان) ، مما جعلهما بعيدين

عنا حقاً ، وكانت حياتهما هانئة على الأقل فى بدايتها .. لم يكن شىء غريب فى كل هذا .. لأن القصة لم تبدأ بعد .

* * *

الفصل الثالث : لا أهمية له سوى التطويل ويمكن لسريعى الملل البدء بالفصل الرابع

قلت لـ (نجلاء) :

- « كل هذا جميل ويسرنى سماعه ، لكنى مازلت بانتظار لحظة ظهور مصاص الدماء ، أو انفتاح قبر عمتك لتخرج منه جثتها المتآكلة جاحظة العينين .. لقد اعتدت سماع ورؤية هذه الأشياء ، وإنه ليثير قنوطى أن ...... »

- « سيخيب أملك إذن ! »

قالتها وهى تضع زجاجة المياه الغازية على الزجاج ، وتتجشأ مرة أخرى بطريقتها المكتومة التى تكوّر خديها ، وأردفت :

- « لن تجد شيئاً من هذا فى قصتى .. إننى أتحدث عن .. عن أطياف المشاعر ! »

أطياف المشاعر ! إنها الثانية عشرة ظهراً وأنا مُرهق جائع ثم تجىء هذه لتحدثنى عن أطياف

المشاعر .. ساعة كاملة ولما يبدُ لقصتها رأس ولا ذيل .. إنها ـ ببساطة ـ تريد أن تشتم أختها الحسناء (ناهد) وأن أوافقها على ذلك وإلا كنت وحشًا جاهلا ..

أمرى لله .. أكملى يا (نجلاء) هانم ..

* * *

قالت (نجلاء) :

ـ « وفى يوم كنت عائدة من الكلية بأسلوب القاطرة الشهير المأثور عنى .. ذات المشية التى كنت أمشيها وأنا فى المدرسة الابتدائية ، ولا فارق سوى أننى تعلمت ركوب الحافلات المزدحمة والوثب فى أثناء سيرها ، واحتضان حقيبتى كى لا يدسّ أحدهم يده فيها ..

كنت أعبر الميدان المزدحم أمام الجامعة حين .

حين ماذا ؟

لا أدرى بالضبط .. يبدو أننى طرت فى الهواء وأنا أسمع صوت فرامل حادة عنيفة مولولة ، ثم سقطت كجوال القطن على الأسفلت .. ولم أصدق أننى أستحق كل هذه الضوضاء ، وأن هذا يحدث لى أنا بالذات ..

كنت خجولا أمقت لفت الأنظار ، حتى لو كان هذا بسبب حادث سيارة ، لهذا سارعت بالنهوض ألملم ثوبى وأفتش عن حذائى الذى طار فى مكان ما ، ورأيت صاحب السيارة يصيح مغضبًا :

ـ « حمقاء ! ألا تفتحين عينيك أبدًا ؟ »

لم أرد لكن المحتشدين المتحمسين قاموا باللازم ، وسرعان ما ابتعدت عنهم فى توتر كأننى حيوان غريب برّى .. لست من الطراز الذى يقف ليولول فى هستيريا أو يلوم السائق .. إننى حية وكل أطرافى تتحرك .. فلا داعى لمزيد من الضوضاء أرجوكم ..

وهرعت أتوارى باحثة عن الحافلة التى ستعيدنى إلى البيت ..

فقط حين ابتعدت ، أدركت أن كل عظامى تؤلمنى ، وحين عدت للدار لم أخبر أحدًا بما حدث ؛ لكنى ـ أمام المرآة ـ رأيت الكدمات فى كل صوب .. حقًا لقد كانت صدمة قوية ..

نمت كالقتلى حتى منتصف الليل ، ثم أيقظتنى أمى حاملة صحفة عليها طعام العشاء وكوب لبن ، ولثمت جبينى وقد شعرت بأن مرضًا ما قد بدأ يغزو جسدى ،

وكل الأمهات ـ كما تعلم ـ يعتقدن أن كل الأمراض تبدأ وتنتهى بالبرد .. لماذا أصرّ على ارتداء هذا الـ (بول ـ أوفر) الخفيف بينما أضطر للخروج فى السابعة صباحًا كى ألحق بالكلية ؟

قالت لى كذلك إن (ناهد) وزوجها كانا فى زيارتنا الليلة ، وإن (ناهد) كانت مريضة بدورها وكأن كل عظمة من عظامها قد تم تهشيمها بيد الهاون .. وقد رفض الزوجان أن يوقظانى ..

ثم أعربت عن حنانها الأمومى قائلة :

ـ « ألا ليت مصيبة تأخذكما معًا لأستريح من قلقى عليكما ! »

وضربت كتفى فى غلّ ثم تمنت لى ليلة طيبة .. والاستذكار ؟ فليذهب إلى الجحيم .. صحتك أهم من أى شىء ..

وأطفأت النور ..

* * *

فى الأيام التالية يا د. (رفعت) لم ألحظ شيئًا غير طبيعى .. إن الآلام تحدث لنا جميعًا وأكثرها بلا تفسير ..

كم مرة شعرت فيها بألم فى كاحلك ، أو وخزة فى صدرك ، أو رأيت كدمة لا تفسير لها على ذراعك ؟ كم مرة شعرت فيها بصداع لا تفسير له ؟ كلها أشياء تحدث ولا تستحق التعليق ..

فى نهاية الأسبوع قمت مع أبى بزيارة (ناهد) فى دارها فى (حلوان) .. إنها رحلة شاقة حقًا ، لهذا لا نقوم بها إلا مرة فى الشهر ، ولم تكن حياة (ناهد) ذات منغصات خاصة أكثر من أية حياة زوجية أخرى ..

كانت (ناهد) مدللة لم تتحمل مسئولية قط ، ولم تعدّ كوب شاى لنفسها ، ثم أدركت الحقيقة المريعة : إنها لن تظل أميرة للأبد .. إن زوجها المهندس المكافح يحتاج إلى ربة بيت كذلك !

كانت لديها طفلة صغيرة فى العاشرة من عمرها تعينها إلى حدّ ما ، وهى خادمة من قرية أمى .. لكن ماذا بوسع طفلة أن تفعل أمام هذا الكمّ المريع من المهام ؟ الغسيل .. الطهى .. الكىّ .. التنظيف ..

ووسط هذا كانت (ناهد) تحاول أن تقنع نفسها أنها سعيدة .. لكن خيبة الأمل كانت جلية على وجهها ، وللمرة الأولى فى حياتى شعرت بأنها تحسدنى !



فى اللحظة التالية شعرت بقوة هائلة ترجنى رجًا من الداخل .. يد عملاق تعتصر قلبى وتحاول اقتلاعه منى أو اقتلاعى منه ..

جلس أبى مع (محمود) فى الصالة يثرثران ، ويقرران سياسة الدولة وهل ينبغى على (عبد الناصر) أن يوقف حرب الاستنزاف أم لا ، بينما رحت أساعد (ناهد) فى الغسيل .. لقد ابتاع لها (محمود) غسالة ثياب كهربية من ذلك الطراز الرهيب الذى لم يكن هناك سواه وقتها ..

وكانت (ناهد) واقفة على يسار الغسالة ، تمدّ يدها بالماسك الخشبى لتلتقط قطعة قماش طافية فوق سطح الماء ، لكنها تعثرت واضطرت إلى الاستناد إلى جسم الغسالة المعدنى .. هنا يجب أن أقول إنها كانت حافية القدمين ، وإن سلكًا ما كان عاريًا فى هذا الجهاز الغير محكم الصنع .. و .....

هى ى ى ى ى ى ى !

دوت صرختها المعذبة الشنيعة الملينة بالانتفاض والاهتزاز ، ورأيتها تتصلب دون أن تتخلى عن تمسكها بالمعدن ، و .....

فى اللحظة التالية شعرت بقوة هائلة ترجنى رجًا من الداخل .. يد عملاق تعتصر قلبى وتحاول اقتلاعه منى أو اقتلاعى منه ..

وصرخت بدورى ..

وفى غمرة الألم أدركت أن أرض الحمام المبتلة قد أغلقت الدائرة الكهربية المارة بجسدينا .. وكنت حافية القدمين كذلك ..

إنه .. إنه المو .. و .. و .. ت !

سريع التصرف كما يحدث فى السينما ـ أليس شبيها بـ (رشدى أباظة) لولا بعض الحول ؟ ـ اندفع (محمود) إلى الحمام ليرى المشهد العجيب ..

ودون أن ينتظر ثانية للفهم وثب إلى لوحة (المنصهرات) الكهربية المجاورة للحمام ، فانتزع الأجسام الخزفية كلها وألقاها أرضًا ، وانقطع التيار الكهربى عن المنزل ..

وفى اللحظة التالية سقطنا على الأرض معًا كجلمودى صخر حطهما السيل من علٍ ، كما لا بد أن (امرؤ القيس) كان سيصفنا .

بعد هذا كان المشهد التقليدى : أبى يدلك وجهى ويلدغه ، بينما (محمود) يسقى زوجته بعض الماء .. وكلانا ـ أنا وهى ـ على الأرض المبتلة باردتى الأطراف زرقاوى الشفاه ..

فيما بعد قال (محمود) فى عصبية :

ـ « من الحمق أن تمد المرأة يدها إلى جهاز كهربى ، وهى حافية القدمين فوق أرض مبتلة .. إن أى حمار جرّ يعرف هذا جيدًا بالسليقة .. »

وقال أبى وهو يتحسس صدره فى قلق :

ـ « لقد كدت أفقدهما فى ثانية .. لقد قدّر الله ولطف بنا .. »

لكن (محمود) ظلّ يرمق أرض الحمام فى فضول ، ثم قال :

ـ « الغريب أن الماء لا يصل إلى حيث (نجلاء) .. وإننى لأسائل نفسى عن سبب الـ ...... »

ـ « إنها الكهرباء ! »

قالها أبى كأنما هى إجابة تغنى عن أى شىء ..

عاد (محمود) يقول :

ـ « لقد استكملت (ناهد) الدائرة الكهربية حين لمست المعدن ، لكن ما الذى لمسته (نجلاء) ؟ ما الذى استجدّ بالنسبة لها ؟ »

قلت فى إنهاك :

ـ « حقًا لا أجد تفسيرًا .. لعلى لامست جسم الغسالة دون أن ألاحظ ذلك »

من جديد قال أبى منهيًا الكلام :

ـ « إنها الكهرباء .. لا تسأل أبدًا عن الكهرباء .. »

لكن (محمود) غمغم للمرة الأخيرة وهو يرمق أرض الحمام :

ـ « حقًا .. مازلت لا أفهم .. »

لا أفهم ..

* * *

الفصل الرابع: لا أهمية له سوى الإطناب ويمكن لسريعى الملل أن يبدءوا بالفصل الخامس

قالت (نجلاء) :

ـ « مرض غريب بدأ ينتابنى فى الأشهر التالية .. وهو مرض غامض حقًا يغلب الظن أن كتب الطب لم تصفه .. »

سألتها وقد بدأت القصة تثير شغفى :

ـ « صفى لى الأعراض .. »

تنهدت وتحسست قرطها المتدلى ، وقالت :

ـ « دوار شديد .. كل شىء لا يثبت فى موضعه .. حياتى كلها حالة من لحظات ما بعد دوراننا المستمر حول أنفسنا فى الطفولة .. ثم القىء .. القىء عند الاستيقاظ من النوم ، وعند التفكير فى الأكل أو شم رائحته ..

ثم ذلك الاشمئزاز غير العادى من اللحوم .. أمقت اللحم حتى لو كان صورة فى مجلة أو ذكرى ، وتتحرك العصارة الحمضية من معدتى متجهة لأعلى مهددة بالانفجار .. »

قلت أطمئنها ، وأنا أنتقى كلماتى جيدًا :
ـ « يا صغيرتى إن سرطان المعدة احتمال وارد ، لكن لا تدعى التفكير فيه يفسد حياتك ، ربما لا يكون الأمر سرطانًا برغم كل شىء ! »
ابتسمت ، وغمغمت :
ـ « حقًا يا د. (رفعت) .. إن كلماتك كالبلسم على روحى .. لم أفكر فى هذا الموضوع قط .. وما هى الاحتمالات الأخرى ؟ »
ابتسمت كى أوحى لها بالهدوء ، وقلت فى رقة :
ـ « إن القىء الصباحى يشير إلى الفشل الكلوى بشدة .. وهو ـ مع شحوب بشرتك ـ احتمال لا يمكن استبعاده .. لكن لا تدعيه يجعل حياتك جحيمًا .. يمكننا إجراء اختبار معملى بسيط كى ...... »
ضحكت طويلاً فلم أفهم سبب ضحكتها .. ثم عادت تسألنى فى خبث :
ـ « لا احتمالات أخرى ؟ »
فكرت قليلاً .. ثم قلت فى ملل :
ـ « الهستيريا طبعًا وهى واردة جدًا .. خاصة بالنسبة للفتيات المحبطات عاطفيًا ـ ولا أعنيك أنت

بالذات بهذا ـ وطبعًا هناك احتمال الحمل لكنه مستبعد هنا .. كلا .. لا تفكرى فى أورام المخ بتاتًا .. لا يوجد لديك صداع ولا ذلك القىء (القاذف) الخاص بأورام المخ .. لو كان ما لديك ورمًا بالمخ لكنت أنا حمارًا .. »
عادت تضحك ، وقالت :
ـ « د. (رفعت) ! إنك تملأ حياتى حبورًا بكل هذه الاحتمالات البهيجة .. على كل حال لقد فشل كل الأطباء فى معرفة مصدر الخطأ .. وشربت براميل كاملة من أدوية القرحة المعدية الشبيهة بالجير ، دون جدوى طبعًا .. لقد انتهت هذه الأعراض بعد ثلاثة أشهر ، والسبب فى ذلك هو أنها قررت أن تنتهى ! »
فكرت فى الأمر مليًا ، وكدت أعلق ثم أشرت إليها كى تواصل قصتها ..
قالت وهى تحدق فى البساط :
ـ « بعد ستة أشهر من هذا كانت أعراض ضيق التنفس ترهقنى رهقًا شديدًا .. كان ثقلاً يجثم على صدرى مانعًا حجابى الحاجز من الحركة .. وفجأة

بدأت أعراض التنفس تزول لتبدأ أعراض المثانة : مئات المرات أدخل دورة المياه ، وأنهار من البول لا تفسير لها سوى مرض البول السكرى .. »

ـ « وطبعًا لم يتضح أنك مصابة به .. »

ـ « بالطبع .. لقد حار الأطباء فى تفسير كل هذا ، وحار الشيوخ مطلقوا البخور الذين استعانت بهم أمى .. إن أكثر هؤلاء نصابون على كل حال .. إن الشيخ ذا (السر الباتع) حقًا لا يطلب عشرين جنيهًا ودجاجة أجرًا له .. »

سألتها وقد بدأت أفهم ما يحدث :

ـ « وهل كنت تشعرين بحنين لشىء ما ؟ اشتياق لنوع معين من الطعام ؟ »

ابتسمت فى خبث ، وقالت :

ـ « تسأل عن (الوحم) يا د. (رفعت) ؟ إننى عذراء لم يمسسنى بشر قط .. »

ـ « إن قصتك كلها تفسرها لفظة واحدة : الحمل .. لكننى لن أقولها .. »

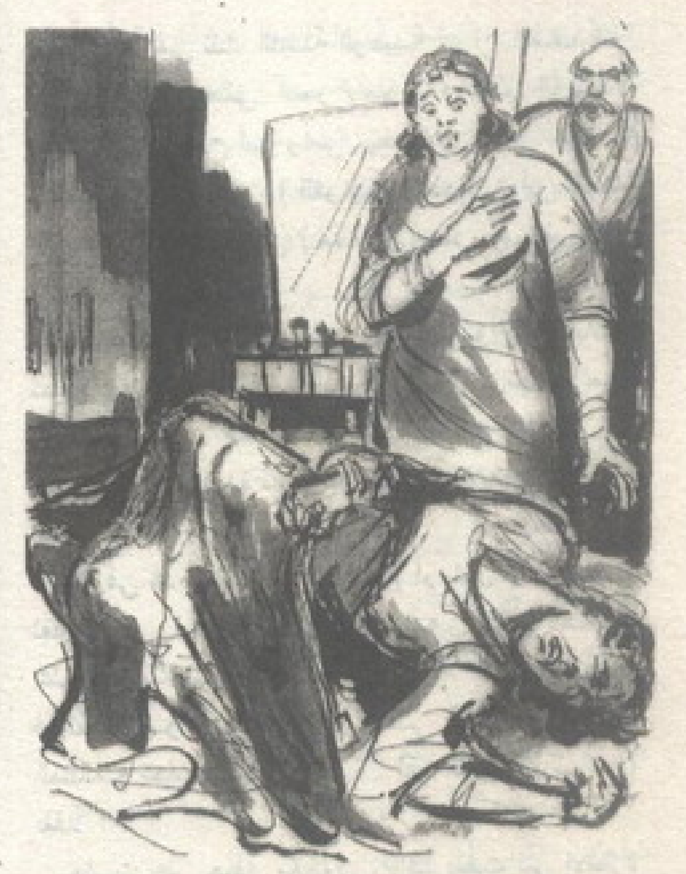
قالت وقد سرّها أننى بدأت أفهم :

ـ « ثم فى تلك الليلة الرهيبة ، راح أعنف ألم يمزقنى .. ألم جعلنى أصرخ مرارًا وأعض الوسادة وأبكى .. وقد راح أبى وأمى يحاولان جعلى أهدأ .. سقتنى أمى بحارًا من (الكراوية) ، وهرع أبى يبحث عن جارنا فى الحىّ (سيّد) وهو ممرض فى المستشفى العام .. »

« فيما بعد وصفت أمى صراخى وآلامى بأنه كصراخ وآلام من تلد .. وقد أثار هذا حيرتها ، فمن الواضح أننى لا ألد ، لكن هذا الصياح المألوف .. هذه الوتيرة الواحدة للأنين .. لحظات الاسترخاء بين ألم وآخر .. »

« وفى هذه اللحظات جاءت (أم بلبل) جارتنا .. لقد شاخت وصارت قنطارًا من الدهن لكنها تحاملت على نفسها لتبلغنا بالمكالمة الهاتفية التى وصلتها ، فهاتفها هو الهاتف الوحيد فى البناية .. كانت المكالمة تحمل أخبارًا سارة : لقد أنجبت (ناهد) طفلاً ! »

جلست على حافة مقعدى ، وقد بلغت بى الإثارة مداها ، وصحت :



«ثم فى تلك الليلة الرهيبة ، راح أعنف ألم يمزقنى .. ألم جعلنى أصرخ مرارًا وأعض الوسادة وأبكى» ..

ـ « (ناهد) كانت حاملاً ! لم تقولى لى هذا ! »

ـ « لأنك لم تسألنى ! » وهو حمل تأخر كثيرًا على كل حال .. »

ـ « وكانت ولادتها فى الوقت ذاته ؟ »

ـ « حقًا .. لقد كانت ولادة سريعة جدًا وغير متوقعة بالنسبة لبكرية مثلها .. كنا ننتظر أن تلد بعد أسبوع ، ولم نكن نرتاب فى شىء حين أوينا للفراش ليلاً .. لو كانت أمى تعلم لظلت بجوارها فى (حلوان).. إن الأمهات من طراز أمى يكرهن أن يضيعن مناسبة كهذه .. »

قلت لها وأنا أنهض لأذرع الغرفة متوترًا :

ـ « وهكذا اتضح كل شىء لك .. »

ـ « طبعًا .. »

ـ « وهل يعلم أبواك هذا ؟ »

ـ « لا .. ولن يفهما لو أخبرتهما .. »

ـ « و (ناهد) تعلم ؟ »

ـ « طبعًا .. لقد أمكنها أن تتذكر مئات التفاصيل الصغيرة التى لم تدرك أهميتها وقتها .. »

ـ « وبالطبع تعلمين أعراض حملها بدقة ؟ »

- « بالتأكيد .. لقد شعرت بكل ما وصفته لك .. »

دسست يدىَّ فى جيبى ، ورحت أردد بلا كلل :

- « غريب ! غريب ! »

* * *

قالت (نجلاء) :

- « حقًا .. كل هـذا غريب .. لكن الأمر يبدو طبيعيًا جدًا حين تكون أنت صاحب هذه الأحاسيس .. ولا تكف عن التساؤل : ربما هو وهم .. ربما مصادفة .. ربما خيل إلىَّ أننى أشعر بكل هـذا .. لماذا ؟ لأن أشياء كهذه لا تحدث أبدًا .. »

ابتسمت بدورى ، وجلست فى المقعد المواجه لها لأشعرها بنوع من الحميمية وقلت لها (وإن كان أكثر الكلام لنفسى) :

- « بالعكس يا صغيرتى .. إن الاتصال النفسى والمعنوى بين التوءمين لأمر معروف وقديم ، وثمة اتصال آخر أقوى وأكثر وضوحًا هو اتصال الأم بابنها .. من منا لم يمرّ بموقف كهـذا ؟ تتألمين أو تحزنين ثم تعودين لأمك ، فتصارحك بأنها كانت تشعر بانقباض شديد ، فى الوقت عينه الذى مررت فيه بتجربتك غير السارة .. »

بعد هذا بأعوام قرأت فى كتاب للأستاذ (أنيس منصور) أن مدير معهد (الكشف عن الكذب) فى (أمريكا) حكى عن أم آلمتها بطنها بشدة ، وفى المستشفى بحثوا عن التهاب فى زائدتها الدودية فلم يجدوا .. بعد ساعات دق جرس الهاتف وكانت ابنتها تخبرها بأنها أجرت جراحة الزائدة منذ قليل ، وأنها الآن بخير ![*]

إن التواصل الشعورى بين جسمين ماديين منفصلين لأمر غريب ؛ لكن من الواضح أنه شىء قديم ومعروف لدى البشرية ..

توجد عادة عجيبة اسمها (الكوفيد) Couvade ، تمارس على نطاق واسع لدى الشعوب شبه البدائية فى (أمريكا الجنوبية) و(جنوب شرق آسيا) ..

والملاحظ هاهنا أنها لم تمارس قط فى (إفريقيا) ولا (استراليا) ..

والعادة مضحكة بعض الشىء لكنها تعكس شيئًا مما نتحدث عنه ..

(*) أرواح وأشباح . دار الشروق . الطبعة الثالثة عشرة .

حين تلد الأم يدخل زوجها كوخه وحيدًا ليرقد فى الفراش ويئن .. ويكفّ عن عمل أى شيء لمدة أيام ، ويتحاشى أى عمل عنيف ، ولا يلتهم سوى الأرز بالملح !

بمعنى آخر : يقوم هو بكل ما تقوم به النفساء ، بينما الأم الحقيقية غارقة فى أعمال البيت الشاقة دون لحظة راحة واحدة !

ما معنى هذا ؟ ما الغرض منه ؟ لا أحد يدرى حقًا ..

وكالعادة ـ كلما تعلق الأمر بعادات البدائيين ـ كانت الكلمة الفصل للسير (جيمس فريزر) فى كتابه الشهير (الغصن الذهبى) .. يقول (فريزر) إن الأب يأكل أكلاً لينًا كى لا يؤذى معدة الوليد !

ويتأوه فى الفراش كى يخدع الأرواح الشريرة ، فتحسبه هو الأم وتهاجمه .. وهو ـ بطبيعة الحال ـ أقدر على مكافحتها وأقوى ..

ها نحن أولاء أمام مثال فريد للتكامل الحيوى : المرأة تلد فيتأوه الرجل ويرقد فى الفراش فى حالة إعياء ، والرجل يأكل طعامًا سهل المضغ كى لا يتأذى ولده !

إن (الكوفيد) طقس بدائى رمزى نتحدث عنه طلبًا للطرافة ، لكن ما الموضوع فيما يتعلق بصديقتنا (نجلاء) هذه ؟

* * *

الفصل الخامس: لا أهمية له سوى الاستطراد ويمكن لسريعى الملل أن يبدءوا بالفصل السادس

كان د. (محمود) جالسًا فى معمل (وظائف الأعضاء) - (الفسيولوجيا) إذا كنت تفضل ذلك - عاكفًا على تصحيح بعض أوراق طلابه .. وكنت متوترًا بصدد اللقاء ، فلا شيء يثير الذعر مثل أن تلقى إنسانًا لم تره منذ ثلاثة أعوام .. لقد عاد من (ألمانيا) أخيرًا ولن يكون اللقاء سهلاً .. لا بد من كثير من الصراخ والتهليل والقسم و .. و .....

وقد كان بالضبط ، مع كثير من العناق ، والضرب بقبضة اليد بين لوحىّ الكتف ، والرذاذ المتطاير من الفم . وأخيرًا استطاع أن يهدأ فأخبرته بمشكلة (نجلاء) ..

ابتسم فى غموض ، وقال وهو يتقدمنى إلى منضدة ما :

- « أنت تبحث فى أكثر أسرار النفس البشرية تعقيدًا .. لا تتوقع أن تكون لدىّ إجابة جاهزة لهذا ،

حتى لو كنت حاصلاً على جائزة (نوبل) فى الطب..»

- « كانت هناك ثلاثة كلاب تعسة مقيدة إلى إطارات خشبية ، حيث يمارسون عليها تجارب (بافلوف) الشهيرة ذات الجرس — رأيته يشير إلى قفص به أنثى كلب لطيفة المنظر ، تحيط بها ثلاثة جراء رائعة الجمال .. كان ينتوى شيئًا ما .. وكانت عينا الكلبة قلقتين مثلى تمامًا ..

قلت له مرتابًا :

- « لحظة .. لا تقل إنكم تعذبون هذه الكائنات الوديعة بدعوى العلم .. »

ابتسم وهزّ رأسه نفيًا :

- « سنفعل لكن ليس الآن .. إن (توسكا) قد صارت أمًا ، وهذه مناسبة تستحق الاحتفال بها .. يمكن تأجيل التجارب بضعة أيام أخرى .. تعال يا (بسيونى) .. »

جاء العامل التعس بدوره كأحد هذه الكلاب ، ودون سؤال مدّ يده إلى داخل القفص والتقط جروًا صغيرًا لا يكف عن التلوى والصراخ الرفيع .. حاول عضّ يده الخشنة لكن ما من عضة تستطيع اختراق هذا الجلد الثخين ..

- « (محمود) .. ماذا تنوى بالضبط .. »

- « ششششش ! انتظر لحظة .. »

ورأيته يحمل الجرو الصغير ويشير إلى كى أتبعه إلى حجرة جانبية صغيرة ، ثم أمرنى أن أقف على الباب مما يتيح لى رؤية المعمل والحجرة الجانبية فى الآن ذاته .. كانت (توسكا) تدور فى قفصها وتصدر أنينًا رفيعًا يمزق نياط القلوب .. لقد طار صوابها فرقًا ..

رأيت (محمود) يكمم الجرو الصغير بيده اليسرى ، ثم بيده اليمنى يغرس دبوسًا دقيقًا فى ظهره .. تلوى الشىء عديم الحيلة ألمًا ، لكنه لم يستطع العواء ..

- « (محمود) هل جننت ؟ أتترك هذا الـ ...... »

فى اللحظة التالية نظرت إلى القفص الذى كانت به (توسكا) ، فرأيتها تشب على قدميها الخلفيتين ، وقد تشبثت بالسلك الغليظ ، وراحت تعوى دون هوادة وبلا كلل .. كانت تتألم حقًا .. لا شك فى هذا ..

انتزع د. (محمود) الدبوس وغرسه فى فخذ الجرو ..

صرخة ألم رهيبة ليس من الجرو ، بل من (توسكا) ذاتها .. وقد بلغ بها الهياج حدًا مريعًا ، فلو لم تكن فى قفصها لمزقتنا شر ممزق ..

- « كفى .. كفى ! لقد اقتنعت ! ليس من واجبك أن تذبحه كى تضمنى إلى وجهة نظرك ! »

قال كمن ينهى محاضرة شائقة :

- « كان هذا مثالاً بسيطًا .. كما ترى : لم تعرف الأم ما حلّ به ، ولم تسمع له صرخة ألم ، لكنها تألمت .. أى جاهل يمكنه أن يرى أنها تألمت .. (بسيونى ى ى) ! »

وهرع (بسيونى) يلحق برنيسه ، فحمل الجرو المولول ليعيده إلى أمه ، وهو يردد عبارات التهدئة :

- « هيه ! كفى ! لقد عاد لك يا امرأة ! سترين أننا لم نأكله بعد ! »

والحق أن عينىّ كادتا تدمعان وأنا أرى لهفتها على رضيعها ، وهى تلعقه بلسانها فى جنون كأنما تتأكد من أنها أزالت رائحتنا المقززة من على فرائه ..

قال د. (محمود) وهو يغسل يديه تحت صنبور ماء :

- « إن الأمر قابل لتفسيره أدبيًا أو فلسفيًا .. إن الأطفال قطعة من روح الأم انفصلت عنها ، ولهذا تشعر الروح الكبرى بآلام أجزائها .. لكن أعطنى تفسيرًا علميًا واحدًا لا يقودك إلى المصحة العقلية ..

لا يوجد .. إن الذراع المبتورة لا تشعر بما يحدث فى جسد صاحبها .. دعنى أبتر ساقك ثم أعدّ منها شواءً ممتازًا .. يمكنك وقتها أن تجلس معى بانتظار نضجها وتأكل منها لو أردت .. لكن لا تزعم لحظة أنك ستشعر بذات النار التى تحرقها .. »

الحق أن هذه الصورة بدت لى شاذة نوعًا : أنا و (محمود) نجلس إلى المائدة نتلمظ ، بينما ساقى النحيلة موضوعة على الفحم ، وقد بدأ صبرنا ينفد وجوعنا يتزايد .. يا له من مشهد !

سألته وأنا أحرك ساقىّ كأنما لأتأكد من أنهما هناك :

- « وبالطبع ما ينطبق على الأمهات ينطبق على التوائم .. »

جفف يده بالمنشفة ، وقال :

- « نعم .. إن نظرية G.O.K تفسر كل هذه الأسرار الأزلية .. »

- « وما خلاصة هذه النظرية ؟ »

- « GOK أى God Only Knows (الله وحده يعلم) وهى من التفسيرات المحببة لنفر كبير من العلماء ..

وبها تجد الحقيقة وراء مثلث (برمودا) وشهاب (تونجوسكا) وظاهرة التخاطر و .. و ..... إنهم يسمون هذا المذهب باسم (اللا أدرية) .. »

حقًا .. G.O.K (سبحان الله) .. لكن من واجبنا أن نبحث وأن نحاول أن نعلم .. علنا نقتبس جذوة من نار العلم السرمدية اللامتناهية ، تبدد عنا ظلام الكهف ليلًا ..

G.O.K .. لكن مشكلة (نجلاء) تنتظر الحلّ ..

* * *

فى الثامنة مساءً توجهت إلى دارها ..

كان د. (محمد شاهين) قد أعطاهم فكرة عن مقدمى ، والحقيقة هى أننى لم أدر سببًا لرغبتى فى زيارة دارها .. لربما شعرت بأن تواجدى فى مسرح الجريمة خير من القراءة عنه فى الصحف ، ولربما حسبت أننى سأرى شيئًا لم أتوقعه ينير لى هذا الظلام ..

لكن أهم الأسباب لقدومى هو أن (ناهد) قد وعدت بزيارة أهلها فى ذلك الوقت بالذات ، وهى لعمرى صدفة جيدة ..

تسألون عن سر حماسى للأمر ؟ يا سلام ! إن فضولى البشرى لا يمكن إرواؤه ، ثم إن هذه المغامرة بعيدة ولله الحمد عن التوابيت التى تنفتح عند منتصف الليل ، والأشياء التى تعوى عندما يبزغ القمر من وراء السحاب .. إنها مغامرة شبيهة بحل الكلمات المتقاطعة فى جريدة ، ولا تزيد أو تقل فى خطرها عن ذلك ..

كان شارعًا ضيقًا متوسط النظافة .. نظرت لشرفة الطابق الثالث فلم أجد القُلّة إياها ، لا بد أن الأب اشترى ثلاجة بالتقسيط من معاشه .. لكنى رأيت القطة المشمشية الواقفة على السور نصف غافية ، وهى - القطة - من طقوس الطبقة المتوسطة المقدسة .. لا بد من واحدة يضربونها بعصا المكنسة حين تسرق اللحم أو تعوى فى مواسم التكاثر ..

السلم هو السلم المعهود فى هذه المنازل .. بعض درجات مهشمة أو معوجة .. رائحة عطن من البئر .. شقق الجيران مفتوحة تصاعد من بعضها رائحة عشاء يُطهى ، وترى كل هذا فى ضوء خاب من مصباح سلم يخفى أكثر مما يظهر ..

الطابق الثالث .. كان الهواء يتحدى رئتى أن تبتلعه ، وتسارعت دقات قلبى فالتقطت أنفاسى برهة ، ستقتلنى ناطحات السحب هذه يومًا ما .. دققت الجرس فظهر لى الأب هاشًا باشًا .. كان كما وصفته تمامًا : أب .. لا أكثر ولا أقل ، يرتدى جلبابًا أبيض يكشف عن كرش لا بأس به ، وحافى القدمين على سبيل التبسط ..

وجلست فيما يشبه قاعة الجلوس .. بحثت عن الأريكة إياها التى تغطيها سجادة الصلاة لتخفى تمزقات القماش .. آه ! ها هى ذى .. ثم بحثت عن الصورة اللعينة التى تطاردنى فى كل مكان ، والتى تظهر فتاة تحاول أن تلثم بشفتيها فم ثعبان بين أناملها .. آه ! ها هى ذى ! أنا لم أخطئ طريقى إذن .. وطبعًا الجدران مطلية بالجير ذى اللون الأصفر الشاحب كالعدس .. بيت تقليدى جدًا .. و - كالعادة - مزدحم جدًا بالأثاث أكثر مما يتحمله الأمر ..

جاءت الحاجة ترحب بى ، وهى كما وصفتها (نجلاء) تمامًا ، وإن بدا الشك فى أمرى واضحًا فى نبرتها ونظراتها ..

« هذه المرأة تعتبرني نصابًا »

قلتها لنفسي ، واحترمتها لصراحتها .. فمن أنا كي أزعم أنني أفهم ما عجز عنه كل المشايخ الذين جاءت بهم ؟ .. من أنا أمام كل البخور الذي أحرقته ، والأحجبة التي علقتها في صدر ابنتها ؟

قال الأب وهو يضع كوب الشاي على الأريكة جواري :

ـ « إن (نجلاء) تتعذب بحق يا دكتور .. »

كان الكوب في وضع خطير ، فلو تحرك ربع بوصة لانقلب .. لهذا تركز انتباهي كله على منع هذه الكارثة .. قلت له شارد الذهن :

ـ « أنتم ترونها تتألم طيلة الوقت .. »

ـ « ليس الأمر مقصورًا على الألم .. أحيانًا تنهض من على الطبلية ثم تعلن أنها جائعة .. وأحيانًا تشمئز من الطعام برغم أنها لم تذقه منذ يوم .. أحيانًا تبكي أو تضحك دون سبب .. »

حقًا إن الأم محقة ..

يسهل على الرجل العادي أن يفترض أن هذه

أعراض مس .. التباس .. تقمص من الجن .. أما الطبيب النفسي فسيرى حالة (هستيريا) مثيرة للاهتمام ..

جاءت (نجلاء) فحيتني في حرارة ، وجلست تنتظر .. سألتها وأنا أنظر لساعتي :

ـ « هل مدام (ناهد) قادمة ؟ »

ـ « هكذا وعدتنا .. ولا أدري لم تأخرت .. »

ثم قالت بلهجة ذات معنى :

ـ « يبدو أن الصداع قد جعلها تتأخر عن المجيء .. »

وفهمت ما تعنيه .. لقد شعرت بصداع شديد مما جعلها تفترض أن (ناهد) تشعر بنفس الشيء .. وهو وضع مرهق حقًا .. كيف يمكنك تمييز الصداع الأصيل من الصداع المقلّد ؟ .. كيف يمكنك تمييز صداعك من صداع الآخر ؟..

ـ « آه ! .. ها هي ذي ! »

قالتها وهي تنهض استجابة لدقة الجرس ، وظللنا في صمت بضع دقائق ، ثم دخلت (ناهد) وزوجها إلى المكان ..

* * *

أما عنه فكان شبيهًا بـ (رشدى أباظة) حسب قول (نجلاء) لكن لو كان (رشدى أباظة) شبيهًا بـ (عبد الفتاح القصرى) ! إن دقة الوصف عند بعض الفتيات تصيبنى بالجنون أحيانًا .. كأن لهن عيونًا غير عيوننا ..

أما عن (ناهد) فكانت تضمّ رضيعها – الملفوف كمومياء (حتب حرس) – إلى صدرها ، ونظرت لى فى عدم فهم .. الحق أنها كانت باهرة الجمال .. الشمس الساطعة التى تحرق عينيك بنورها .. لكنها لا تبعث الارتياح فى النفس ، وثمة مسحة ما من القسوة والعجرفة على وجهها .. ولعلى مخطئ فى هذا ، لكن (نجلاء) كانت بحق أكثر جاذبية وراحة للنفس ..

صافحنى الزوج فى ارتياب ، وصافحتنى هى فى شك ، فداعبت الرضيع فى اشمئزاز ، ثم جلسنا جميعًا فى توتر .. !

فى النهاية – على صوت رشفات الشاى القلقة – قالت (نجلاء) :

– « أعتقد أن د. (رفعت) يريد الانفراد بى أنا و (ناهد) .. »

تبادل الأب والأم وزوج الابنة نظرات عدم الفهم .. خاصة أن الأخير لم يكن يعرف لى دورًا فى الحياة أصلا .. لكن (ناهد) اختصرت مجهود الشرح إذ سقط كوب الشاى الساخن على قدمها فأطلقت صرخة ..

وفى اللحظة ذاتها صرخت (نجلاء) وهى تتحسس قدمها :

– « قدمى .. ! .. آه ه ه ! » .

هرعت الأم تتفحص قدم (ناهد) ، وراحت تنظف ما سقط على الأرض بخرقة قماش لا أدرى من أين جاءت بها ، أما أنا فأدركت بنظرة سريعة أن الحرق سطحى لا يستحق ضجيجًا .. الغريب أن قدم (نجلاء) بدأت تكتسى باللون الأحمر ذاته ..

نظرت للزوج فرأيته ينظر لى ذات النظرة .. قلت :

– « الآن أنت تفهم سرّ مجيئى .. »

قال وقد صرنا على موجة واحدة :

- « إن هذه الحوادث تتكرر كثيرًا جدًا .. لم يعد بالإمكان ألا تلاحظ ذلك .. »

ثم - بلهجة شبه آمرة - قال للأب والأم :

- « والآن هلما يا حماتي ويا عمى .. لم يحدث ضرر من الشاى والحمد لله .. لكن الدكتور يريد فحص (نجلاء) بدقة .. »

امتثل الاثنان للأمر ، وهما لا يفهمان .. لقد قاما بتقديمنا لبعضنا منذ دقائق والآن صارت لدينا أسرار خاصة لا ينبغى أن يطلعا عليها !

حين هدأت الفتاتان أخيرًا قمت كى .. أو بس ! لقد حدث المحظور وطار كوب الشاى ليلوّن الأريكة كلها نسيت وضعه الحرج فى غمرة انفعالى .

رحت أعتذر وهم يؤكدون ألا مشكلة هنالك ، لكنهم - قطعًا - يتمنون أن يقطعوا عنقى فى سرائرهم ..

انتهى المزاح فقمت كى أعرف حقيقة هذه الظاهرة ..

* * *

الفصل السادس : لا أهمية له سوى الإسهاب ويمكن لسريعى الملل أن يبدءوا بالفصل السابع

كانت النتيجة إيجابية حقًا ..

جربت اختبارات الإحساس المعروفة كالألم والحرارة - بقاعدة كوب الشاى الساخنة - والضغط العميق ، وفى كل مرة كان وخز معصم (نجلاء) أو إصبع قدم (ناهد) يصل دون تحريف إلى الأخرى وفى الموضع ذاته .

لقد كان جهازهما العصبى واحدًا ..

ظلّ الزوج - واسمه (محمود) - يتابع المشهد صامتًا كالأسماك .. لكن النتائج كانت واضحة تمامًا لا تحتاج إلى أدنى تعليق ..

بعد قليل همس بصوت كالفحيح :

- « كنت أشك فى هذا منذ حادث الغسالة الكهربية .. لكنى لم أعد قط متأكدًا كهذه اللحظة .. إن هذا مستحيل .. »



وفى كل مرة كان وخز معصم (نجلاء) أو إصبع قدم (ناهد) يصل دون تحريف إلى الأخرى وفى الموضع ذاته ..

ـ « الآن ترى أنه ليس مستحيلا .. »

قالت (ناهد) وهى تشد كم قميصها لتعيده إلى موضعه :

ـ « لا ندرى متى بدأ هذا ، لكننا أفقنا فجأة لنجد أننا ـ أنا و (نجلاء) نشعر بالأشياء ذاتها ، وإننى أتساءل عن كوننا لم نلحظ هذا فى طفولتنا .. يمكن القول إن الأمر بدأ منذ عام واحد .. »

قلت فى حيرة :

ـ « ربما كان السبب هو أنكما تباعدتما فتضخم هذا الشعور ليعوض المسافة بينكما .. ربما كان السبب هو أنكما تقدمتما فى العمر وصرتما أكثر قدرة على فهم ما لا ينتمى إلى أحاسيسكما .. لا أدرى حقا .. لكن بدء الظاهرة متأخرًا لا ينفى وجودها .. »

قالت (نجلاء) بلهجة حاسمة :

ـ « ما هو مصيرنا ؟ .. هذا هو السؤال .. »

قال الزوج بلهجة مستخفة :

ـ « أى مصير ؟ لا مشكلة هنالك .. ولا خطر .. »

قاطعته وأنا أريح جسدى المنهك على الأريكة :

ـ « لا خطر ؟ من قال هذا ؟ من حق كل

واحدة منهما أن تعيش حياة طبيعية ، وألا تتألم حين لا يكون هناك سبب للألم .. لو أجرت واحدة منهما جراحة فما ذنب الأخرى ؟ .. ثم إننا لسنا خالدين على الأرض .. لو جاء قضاء الله وتوفيت واحدة .. »

فى ضيق غمغمتْ (ناهد) :

ـ « فأل الله ولا فألك ! »

شعرت بغيظ إلى هذا الحدّ هى حمقاء مغرورة ؟

قلت فى هدوء :

ـ « كلنا سنموت ، ولن يُخلد أحدنا لمجرد أن هذا يروق له .. لو ماتت واحدة منكما فما مصير الأخرى ؟ »

كلها أسئلة بلا إجابة ..

كلها أسئلة إجابتها الوحيدة هى G.O.K الشهيرة ..

ربما يتكفل الزمن بمزيد من الإجابات لمعضلة كهذه ..

* * *

بعد هذا بأسبوع كنت راقدًا فى الفراش أقرأ ، وقراءاتى فى الآونة الأخيرة تدور حول القصص الرومانسية شديدة البلاهة .. ليس بسبب الحب

ـ لا سمح الله ـ لكن لأنها الشىء الوحيد الخالى من التوتر ، وهذا من حقى بعد مغامراتى إياها فى (رومانيا) .. ولم يمنعنى من قراءة مجلات (ميكى) سوى بعض الحياء والخجل من كهولتى ..

دق جرس الهاتف فسمعت من يخبرنى فى هلع أنه (عبد الجواد) والد (نجلاء) .. لابد أنه يتصل من شقة (أم بلبل) بالتأكيد ..

كلا .. (نجلاء) لم تمت .. إنها تتلوى ألمًا من وطأة أسوأ مغص يمكن وصفه ، ويبدو أنها لا تكف عن القىء .. ثم :

ـ « أرجوك أن تأتى يا دكتور ! »

نظرت إلى الساعة .. إنها الثالثة بعد منتصف الليل .. وهذه هى مشكلة الردّ على الهاتف .. لا أقوى على الخروج الآن ، لكنى كذلك لا أجرؤ على التنصل .. هناك مستشفيات كثيرة ساهرة ، ينتظر بها آلاف الأطباء الشبان المتحمسين المفعمين نشاطًا وحيوية ، فما ذنبى أنا بالذات ؟ لم تعد صحتى تسمح لى بالركض فى الشوارع ليلا حاملا حقيبتى .. لكنى سأفعل ..

ارتديت ثيابى ، وتناولت حقيبتى ، وركبت السيارة منطلقًا إلى (شبرا) ..

كالعادة كانت أكثر من شقة مفتوحةً ، وكان هناك جيران كثيرون بالمنامة أو قميص النوم ، وقد تحولت شقة (نجلاء) الضيقة إلى سيرك .. وفى غرفة النوم كانوا يصبّون شراب (الكراوية) صبًا فى حلق الفتاة المولولة الباكية ، فنهيتهم عن هذا وأمرتهم بالخروج ..

كان الفحص سلبيًا .. لا توجد علامات على أى شىء مريب سوى تصلب عام فى جدار البطن ، ولم تتذكر الفتاة شيئًا غير معتاد بصدد طعامها أو شرابها .. الكل أكل وشرب معها ..

كانت الحيرة تغمرنى ، ثم بزغ الحلّ فى ذهنى سريعًا .. يا لى من أحمق ! إنها تتصرف كالمصابات بالتهاب بريتونى دون أن تكون مصابة به حقًا .. فما معنى هذا ؟

غادرت الحجرة مسرعًا ، فاستوقفنى الأب على الباب سائلًا :

- « طمئنى يا دكتور .. ماذا دهاها ؟ »

ابتسمت له فى عذوبة وأنا أزيحه عن طريقى :

- لا شىء .. مجرد ثقب فى قرحة معدية .. والتهاب بريتونى ! »

- « وهل هذا خطير ؟ »

- « إنه يقتل .. فهل هذا خطير بما يكفى ؟ »

تقلص وجهه فى رعب .. لقد نسيت أنه مصاب بوهن فى القلب .. عسى ألا يفعلها الآن فلا وقت لدىّ .. سألنى وهو يرتجف :

- « إذن .. إذن لماذا تتركها ؟ »

- « يا له من سؤال ! » طبعًا لأنقذ (ناهد) ! إن الثقب فى معدتها هى ! »

* * *

كانت رحلة رهيبة إلى (حلوان) ، أسترشد فيها بوصف الأب لدار ابنته .. وكان ضوء الفجر يخالط الظلمات ، حين صعدت فى الدرج قاصدًا الشقة فى الطابق الثانى ..

وقبل أن أقرع الباب سمعت الصراخ الذى أكد لى أننى لم أكن حمارًا حين تركت (نجلاء) وجئت هنا ..

انفتح الباب عن وجه زوج (ناهد) ، ولم يقل حرفًا يعبر عن الدهشة أو الترحيب أو الرضا ..

فقط صاح كأنما يستكمل محادثة سابقة :

ـ « إذن تعال لتراها ! . إنها تموت ! »

ودخلت وراءه لأجد ذات المشهد للجارات محمرات العيون اللواتى يتمنين لو انتهى كل هذا الضجيج ليعدن للنوم ، والطفل يعوى كالذئاب على صدر واحدة منهن ..

وفى غرفة النوم وجدت فوضى عارمة ، وملاءات مكومة فى كل صوب ، بينما (ناهد) متكورة فى الفراش تئن وتصرخ ..

كانت جوارها أكواب (الكراوية) الخالدة وفصوص الليمون ، وأكواب النعناع بالكمون .. كل واحدة من الجارات تطوعت بإعداد شىء ما .. والخدمة التى قدمتها هى إعطاء مشروب ساخن لمريضة ذات ثقب فى معدتها ..

وفى هذه المرة كان التشخيص واضحًا تمامًا ، فلم أضيع وقتًا أكثر وصحت آمر أحدهم بأن يستدعى سيارة الإسعاف بالهاتف ..

ربع ساعة أو نصف .. تأخرت السيارة ربع أو نصف ساعة حتى جاءت ، وفى هذا الوقت شبعت

صراخًا وخمشًا وسبابًا من (ناهد) .. فهى ـ كأى شخصية مدللة غير ناضجة ـ تعتقد أن الألم إهانة لها ، ولا تدخر جهدًا حين تتألم فى أن تشعر الآخرين بالذعر والتوتر والذنب ..

إنها تصرخ كأنما يتم ذبحها دون أية محاولة للسمو بالألم أو تحديه ، بينما (نجلاء) كانت تئن من بين أسنانها ، برغم أنها تشعر بذات القدر من الألم ..

* * *

وفى المستشفى ـ حيث أعمل ـ تمت الجراحة بنجاح ساحق .. إن د. (على) أستاذ الجراحة يعرف حقًا ما يقوم به .. لقد كانت (ناهد) تهوى تعاطى أقراص (الأسبرين) لعلاج صداعها المزمن ـ وكل هاته الفتيات الهستيريات مصابات بصداع مزمن ـ لكن الأسبرين أدى عمله جيدًا فأحدث قرحة فى معدتها ، والقرحة استحالت ثقبًا بسهولة بالغة ..

فى اليوم التالى مررت على عنابر الجراحة لأراها ..

كان العنبر مزدحمًا ، فزوجها لم يستطع ولم يرد

أن يدخلها إلى مستشفى خاص .. كانت راقدة على ظهرها وأنبوب (رايل) ما زال يخرج من أنفها .. بينما جلس الزوج جوارها يقشر أصابع الموز لها ، فقط ليكتشف أنها لن تأكل قبل مدة ، من ثم يدس إصبع الموز فى فمه ويبدأ فى تقشير إصبع آخر ..

قال لى حين رآنى ، بفم ملىء بالموز :

ـ « إنها بخير .. والفضل لك .. لقد أضعنا ثلاث ساعات كاملة فى هراء الجارات ونصائح الأصدقاء..»

تناولت إصبع موز بدورى ، فبدأت تقشيره وقلت :

ـ « لا شافى سوى الله .. أعتقد أن المغص قد زال عن (نجلاء) ؟ .. »

ـ « حقا زال .. لكنها تشعر بألم فى جدار بطنها .. على حد كلامها تشعر كأن هناك جرحا مخيطا .. ! »

ـ « هذا لا يثير دهشتى الآن .. »

ودسست إصبع الموز فى فمى مفكرا فى ما إذا كان من الوقاحة أن أمد يدى لأسلخ إصبعا آخر . لكنه قدم لى إصبعا آخر ليوفر علىّ العناء ، ثم كوّر ورقة الجريدة على ما تبقى منه ، ليغلق باب الكرم ..

هنا لاحظت أنه ينظر إلى الوراء فى ارتياب ..

نظرت بدورى للوراء ، فوجدت شابا فى العقد الثالث من العمر يقف على مسافة مترين من الفراش مترددا بين إقدام وإحجام ..

وبوثبتين كان قد اتخذ قراره .. انحنى ومد يده يصافح (ناهد) فى حرارة ، وغمغم بشىء من ارتباك :

ـ « حمدا لله على سلامتك يا (ناهد) .. يبدو أنك على ما يرام .. »

ثم بثلاث وثبات كان قد ابتعد ..

يمكننى هنا أن ألخص غرابة الموقف كما يلى :

١ ـ هو لم يصافح الزوج ولم يفه أمامه ببنت شفة .

٢ ـ مصافحته طالت وقتا أكثر مما يجب .. حتى لو كانت (ناهد) رجلا لما احتاج لكل هذا الوقت ليصافحها .

٣ ـ رد فعلها هو إلى الارتباك والحيرة والحرج أقرب .. لا توجد أية حرارة فى استجابتها .

٤ ـ لم أرتح لمظهر الفتى .. له شارب رفيع مما يحب الأوغاد أن يضعوه فوق شفاههم العليا ، وله عينان ضيقتان آثمتان كذوبان فيهما غباء ودنس ..

ثم شعره الطويل المتدلى على كتفيه كما تقضى الموضة فى أوائل السبعينات ..

٥ ـ من الواضح أنه فى حالة مادية أدنى من متوسطة .. ثيابه تشى بذلك ، وكذا عدم إحضاره لشىء معه ، خاصة علبة الشيكولاته الأبدية التى هى قانون المرض غير المكتوب ..

٦ ـ واضح كذلك أن الزوج لم يحبَّ رؤيته قط ، لقد بدا على وجهه ذات التعبير الذى يبدو على وجهك لو وجدت بورصًا ساقطًا فى طبق الحساء على مائدتك ! هو التعبير ذاته بلا مبالغة .

٧ ـ من الواضح أننى قوى الملاحظة حقًا !

بعد انصراف الفتى نظر لها الزوج مليًا .. ثم همس بصوت كالفحيح :

ـ « كيف عرف هذا الحيوان بوجودك هنا ؟ »

* * *

الفصل السابع : لا أهمية له سوى الثرثرة
ويمكن لسريعى الملل
أن يبدءوا بالفصل الثامن

وجدت أن وقت الانسحاب قد حان .. فنهضت مهنئًا بشفائها ، شاكرًا لزوجها ما قدمه لى من موز .. ولم أدر قط أن هذا اللقاء كان ذا أهمية كبرى فى سياق هذه القصة ..

* * *

ـ « لقد زارها (صلاح) فى المستشفى ثلاث مرات ! »

ـ « تبًا له من وقح ! »

ـ « لو عرف زوجها لفجّر رأسه ! »

ـ « ماذا يريد منها ؟ »

ـ « لقد تزوجت وأنجبت فماذا بعد ؟ هل يجب أن تموت أيضًا ؟ »

كنت جالسًا فى شقة (نجلاء) أصغى لهذه المحاورة اللطيفة الواقعة بين أربعة أطراف ـ فقد كان

د. (محمد شاهين) معنا – وأنا أتظاهر بالصمم ، وبأننى منهمك فى تقشير (البونبون) اللزج الملتصق بورقته ..

فى النهاية شعرت بأن عدم تدخلى فيما لا يعنينى قد صار أقرب إلى الوقاحة وقلة الذوق .. التهذيب الحقيقى هنا هو أن أتدخل فيما لا ناقة لى فيه ولا جمل ..

سألت دون اهتمام حقيقى :

– « أ .. معذرة .. ولكن من هو (صلاح) هذا ؟ »

* * *

(صلاح) ؟ (صلاح) ؟ من الذى لا يعرف (صلاح) فى (شبرا) كلها ؟

(صلاح) الظريف المرح .. (صلاح) القوى .. (صلاح) الوغد .. (صلاح) الثعلب .. (صلاح) الفارس المغوار الذى لا يشق له غبار ..

رسب فى الشهادة الثانوية ثلاث مرات ، وبعدها كف عن المجادلة ولا أحد يعرف ما يفعله بالضبط .. لكن جيبه دومًا ملىء بالنقود التى – على الأرجح – لم يسرقها ..

هل تبحث عن سمسار نصاب للسيارات المستعملة؟ (صلاح) يصلح دومًا .. هل تريد أن تضرب أحدًا ؟ (صلاح) يصلح .. هل تريد أية ورقة رسمية مزوّرة ؟ (صلاح) سيأتيك بها مقابل مبلغ مالى طبعًا .. فلو أنهم يسمحون بكتابة كلمة (أفّاق) فى خانة (المهنة) بالبطاقة الشخصية لوجدتها فى بطاقة (صلاح) حتمًا..

كانت (ناهد) فى المدرسة الثانوية وقتها ، مخلوقة فاتنة تعرف أنها فاتنة .. وكان لابد أن يحوم (صلاح) حولها وقد استنتج أنها ليست حصنًا منيعًا كتوءمتها (نجلاء) .. لحسن الحظ أن أجمل الأختين هى أقلهما التزامًا وصرامة ..

وشخصيته (صلاح) هذه جذابة للنساء دومًا .. فى البدء تهابه الفتاة ثم تجده طريفًا ثم تجده جذابًا .. وكان على (صلاح) أن يحوم حول (ناهد) مرارًا فى أثناء ذهابها أو عودتها من المدرسة ، وهو يلقى عبارات غزل ذكية مازحة لا تملك الفتاة أمامها أن تكتم ابتسامة ..

ثم راح يدور حولها بالدراجة البخارية التى اقترضها من (سعيد) صديقه ويصر على تسميتها

(مكنة) ، ويأتى بحركات بهلوانية من التى لا تراها إلا فى السيرك ، فكانت تبتسم أكثر فأكثر .

وأخيرًا ضحكت !

هنا نجد ظاهرة غير مسبوقة .. إن أمثال (صلاح) هذا غير قادرين على الحبّ أبدًا ، بل هم يطاردون المرأة مدفوعين بنوع من غريزة الصياد ..

مجرد قلب جديد يضاف إلى نادى القلوب المحطمة .. ورأس وعل جديد يعلقه فوق المدفأة مزهوًا ..

لكن (صلاح) أحبّ (ناهد) حقًا ، ولم يعد يرغب فى شىء سواها .. من الغريب أنه بدأ يستقيم ، وبدأ يبحث عن عمل منتظم شريف .. وفى أعماقه السوداء أشرق ضوء خافت : الحاجة إلى زوجة ..

لكن وعود (صلاح) نوع من الدخان الأزرق لا يدوم طويلا .. يعد فى حماسة وينسى وعده فى حماسة أكبر ..

سرعان ما كان يعود لحياة الآفاق .. فهى أسهل وأكثر ربحًا.. ثم إنها تناسب طباعه المتقلبة الثعلبية المتآمرة ..

لكنه ظلّ مولعًا بـ (ناهد) .. ولعل هذا كان الشىء الوحيد الصادق فى حياته عديمة النفع بأسرها ..

وفى ليلة سوداء اصطحب أباه العجوز - خفير سابق فى مصنع - وذهب ليخطبها من أبيها الأستاذ (عبد الجوّاد) ..

كلا لم يكن أحمق ولم يتحامق .. كانت نظريته تستند إلى دعامات قوية .. فالفتاة تميل إليه وهذا واضح .. كل الفتيات يهمن به على كل حال .. ثم إن الفتاة رسبت فى الشهادة الثانوية وهذا يجعل سعرها أقل حتمًا . أضف لهذا أنه كان ذا دخل مرتفع ، صحيح أن أحدًا - ولا هو نفسه - لم يستطع أن يحدّد مصدر هذا الدخل بالضبط .. لكن المال هو المال .

وكان هذا فى عهد الموظفين المحترمين .. حين كان الموظف القادم من الطبقة المتوسطة يعتلى سلم المجتمع قبل أن يهوى اليوم إلى أسفله .. لهذا بدا طلب (صلاح) شديد الوقاحة فى نظر الأب ، وكان رفضه باتًا وقاسيًا :

- « إن ابنتى لن تتزوج رجلا لا أعرف ما هو عمله بالضبط .. ولو سأل أحدهم ابنها عن وظيفة أبيه فماذا يقول ؟ »

أضف لهذا أن الفتى كان يتمتع بأسوأ سمعة فى

الحى كله .. ولم يكن أحد يثق به إلا كما يثق بثعبان .. والثعابين ليست أفضل العرسان لابنتك بالتأكيد ..

كان الرفض باتًا .. لكن (صلاح) لم يستسلم قط ، ولم يصدق أن (ناهد) لن تكون له ..

* * *

وهنا تتحرك الرومانسية فى أفظع صورها ..

رومانسية قصص (ماجدولين) و (غادة الكاميليا) وكل ما لم يقرأه (صلاح) لكنه يتصرف على أساسه.. وقد تعلم الدرس الأول من هذه القصص :

يجب أن تكون حبيبتك لك وإلا لن تكون لآخر !

وبالفعل تصرف بتهور مبالغ فيه ، فاستوقفها فى أثناء عودتها من المدرسة ، وانفعل لدرجة أنه أمسك بمعصمها بقوة ، صارخًا فى هستيريا :

ـ « أنا لا أرفض ! أنا لا أرفض ! »

حاولت أن تتملص فى نعومة دون جدوى ، من ثم بدأت تصرخ بدورها واحتشد المارة وكانت فضيحة لا بأس بها ..



حاولت أن تتملص فى نعومة دون جدوى ، من ثمّ بدأت تصرخ بدورها ، واحتشد المارة وكانت فضيحة لا بأس بها ..

وهكذا ذهب الأب إلى المخفر حيث أبلغ عن الحادث ، واستدعوا (صلاح) ليوقع على إقرار بعدم التعرض للابنة ..

وقع (صلاح) طبعًا .. لكن ما أهمية توقيع كهذا ؟ إن (صلاح) يحمل بذرة مخالفة القوانين فى أحشائه ، وكلما خالف قانونًا شعر بأنه أحسن حالا .. لهذا لم يكن التعهد يساوى أكثر من الورق الذى كُتب عليه ، وأدرك الجميع أنه لن يتوقف ..

خطبت (ناهد) بعد هذا لمهندسها الهمام ، وظلّ الجميع يرتجف هلعًا من انتقام (صلاح) لكنه لم يظهر .. بعد هذا أقيم الزفاف فى حفل متواضع فى شقة د. (محمد شاهين) حتى لا يشعر (صلاح) ، وقد حبسوا أنفاسهم فرقًا ، ولم يكن أحد ليبدى دهشة لو اقتحم (صلاح) المكان حاملا مسدسًا ليفرغه فى صدر العروسين .. إن هذا يحدث دائمًا فى الأفلام العربية ، ومن الغريب أنه فات على العاشق المكلوم إياه ..

لكن (صلاح) لم يكن هنا .. كان قد سافر إلى (فرنسا) ليجمع العنب فى هوجة سفر الشباب

المصرى إلى أوروبا فى أوائل السبعينات .. وهى رحلة لن تسفر عن شىء فى الغالب سوى بضع كلمات فرنسية يتشدق بها ، وقميصين وسروالين على أحدث موضة ، وعلبة سجائر (جولواز) يحملها فى يده لأن السروال ضيق ، ويضعها دومًا حيث يراها الجميع ..

اختفى (صلاح) أعوامًا عديدة من العالم اليومى ، ومن مخاوف الأسرة ، وبدا أن الحياة تتحسن ..

كان ذلك حين بدأت أعراض (التماثل الشعورى) هذه ، وظهر فى حياة الأسرة شىء أصلع نحيل يدعونه بـ (رفعت إسماعيل) .. وهذا شىء مريع ، لكنه ليس أفظع من (صلاح) على كل حال ..

* * *

الآن يظهر (صلاح) من جديد ..

ويظهر فى المستشفى ليهنئ (ناهد) على سلامتها أمام زوجها ، الذى لم يتبين شخصيته إلا بعد رحيله ..

إن الوغد لم ينس شيئًا ، ولم يتعلم شيئًا ..

كان يحسب أن ما جمعه من مال فى (فرنسا)

- وهو فى الغالب قليل جدًا - يصلح لتغيير نظرة الأب له ..

لكنه وجد فتاته قد تزوجت ورزقت طفلا ..

الشخصيات الناضجة تعرف كيف تقبل الحقائق ولا تتحدى المجتمع ، لكن من الأحمق الذى يصف (صلاح) بالنضج ؟

وفى الآونة الأخيرة كفَّ (صلاح) عن الظهور فى (شبرا) .. لم يعد أحد يراه .. لكن وجهًا جديدًا مثيرًا للتساؤلات ظهر فى (حلوان) ..

وبدا واضحًا أن الفتى لم ولن ينسى ..

إنه يبحث عن المتاعب بالمجهر الإلكترونى ..

ولم تكن (ناهد) تعرف هذا حين خرجت مع طفلها إلى السوق ..

* * *

الفصل الثامن : لا أهمية له سوى ملء السجادة
ويمكن لسريعى الملل البدء
بالفصل التاسع

كنت قد فرغت من عملى فجلست أطالع بعض المنشورات الطبية التى وصلتنى إلى الكلية ، حين سمعت صوت الخطوات المألوف على الباب وقرعات خجولا تطلب الإذن بالدخول ..

رفعت عينىَّ لأرى (نجلاء) ، وقد بدا لى كأن قطار بضاعة قد مرَّ فوقها مرتين ..

كان وجهها مليئًا بالإعياء والإرهاق .. وهناك كدمات فى كل مكان خاصة على خديها .. ومن خطواتها أدركت أنها تعرج قليلا ..

لم أجد ما أقول ، وبدا لى من الابتذال أن أسألها عما هنالك .. سارعت بإحضار مقعد لها ، وربَتُّ على كتفها مطمئنًا .. ثم سألت :

- « أنت أم هى ؟ »

لقد صار هذا السؤال تقليديًا فى الآونة الأخيرة .. لا يمكن أن تعرف ما لم تسأل .. قالت وهى تلتقط أنفاسها :

ـ « هى .. لقد حدث هذا فى التاسعة صباحًا .. تلقيت ـ وأنا فى المكتب ـ عشرات الصفعات والركلات .. الطريف أن أحدًا لم يفعل هذا بى .. »

وأدركت على الفور نوع التجربة التى تتعرض لها (ناهد) الآن .. غادرت المكتب مسرعة وركبت ـ بمظهرى العجيب ـ إلى (حلوان) .. وهناك عرفت أن (صلاح) هاجم (ناهد) وهى فى السوق .. بعد محاورة قصيرة انهال عليها صفعًا وركلا كالمجانين ، وكاد يفتك بها لو لم يتدخل الناس الذين أصابهم الذهول لثوان .. وبالطبع كادوا يفتكون به بدوره .. إنه فى المخفر الآن .. وهى فى أسوأ حال .. »

شعرت بذهول عميق ..

أى بلطجى هذا ؟ أى حيوان ؟

إن من يضرب أمًا تحمل طفلها يستحق أن يتم تمزيقه إلى قطع ورميه للتماسيح .. لماذا لم تعد فى مصر تماسيح ؟

رشفت جرعة من كوب الماء الذى أمامى .. لقد جعل الغضب لسانى كحطبة ، ثم قلت لها :

ـ « إنه قد جُنّ تمامًا .. والأدهى أنه عاقب اثنتين لا واحدة ! .. »

ابتسمت فى حزن .. فلم يكن هناك ما يُقال ..

قلت لها بعد صمت طال :

« لماذا جئت اليوم؟ » أعنى إننى أرحب بك دومًا ، ولكن أية ريح طيبة ألقت بك ها هنا ؟ ألتخبرينى بكل هذا ؟

قالت فى شرود وهى تتحسس كدمة تحت عينها اليسرى :

ـ « أقول إننى لم أعد أطيق هذا الوضع يا د. (رفعت) .. إننى أفرح فلا أدرى إن كنت فرحة حقًا .. أحزن فلا أدرى إن كنت حزينة حقًا أم هى .. حتى الجوع لم أعد واثقة من أنه جوعى .. لقد فازت (ناهد) بكل شىء .. واليوم لم تعد مشاعرى ذاتها من حقى.. »

ـ « إنها تعانى الشىء ذاته على كل حال ، ولا أظنها سعيدة .. »

ـ « لكنها حمقاء ! »

قالتها فى اشمئزاز ، وأردفت :

- « حمقاء ! والحمقى يجلبون على أنفسهم الوبال دائمًا .. أنا لا أضرب ولا أصفع .. لا يوجد شىء من المشاعر والأحاسيس الكريهة فيما أنقله لها .. أما هى فتجعلنى أدفع ثمن حماقاتها ! »

نظرت لها مليًا .. ثم فى كياسة غمغمت :

- « بالعكس .. أنت تنقلين لها شعورًا كريهًا طيلة الوقت .. »

- « وما هو ؟ »

- « الغيرة ! »

* * *

زجوا بالفتى فى السجن لمدة ثلاثة أشهر، وهى فترة أشبه بإجازة الصيف بالنسبة للفتاتين وأسرتهما .. سيخرج حتمًا .. لكن ربما يغدو أكثر تهذيبًا .. حين يحبّ من لا يستطيع الحبّ ، يغدو إقناعه بنسيان الأمر ضربًا من المستحيل ..

اندمجت فى حياتى الطبيعية الهادئة ، فكان لى لقاء مع طفل ممسوس ربما أحكى لكم قصته فيما بعد ، وتعرفت كائنًا شيطانيًا يُدعى (كراسوس) ربما

يسعدنى الحظ بأن أقدمه لكم .. ذكرونى فيما بعد بهذين .. هه ؟

أقول إننى اندمجت فى هذه الحكايات البهيجة التى تتكون منها حياتى ، حين جاءتنى (ناهد) ذات صباح فى الكلية .. وهى المرة الأولى التى تفعل فيها ذلك .. كانت كالعادة جميلة جدًا سمجة كحيوان (الأرماديللو) .. لكننى رحبت بها ، وأنا أستعيد القصة إلى ذاكرتى من جديد ..

قالت فى شىء من الضيق :

- « تعبت كثيرًا حتى وجدت هذا المكتب » اعتذرت لها بشدة عن عدم استطاعتى وضع مكتبى فى منتصف ميدان (التحرير)، فمن العسير أن يسمحوا لى بذلك ، ثم سألتها فى غلظة عن سبب تشريفها لى ..

قالت وهى تضع ساقًا على ساق ، وتلوك قطعة لادن فى عصبية :

- « إن الجروح تملأ جسدى ، ورأيت أن آخذ رأيك .. »

ثم مدت ساعدها لترينى معصمها الذى امتلأ بالكدمات ..

قلت وأنا أخلع عويناتى لأضع عوينات القراءة : ـ

« يبدو أن .. هل قابلت (صلاح) مؤخرًا ؟! »

تنهدت فى صبر كأنما لا تصدق أى حمار هذا ، وقالت :

ـ « (صلاح) فى السجن .. ألم تفهم هذا من (نجلاء) ؟ »

ـ « إذن ما الذى ؟ .. هذه كدمات يا بنيتى وليست مرضًا جلديًا .. لا بد من إصابة ما .. »

ـ « هذا هو ما أقوله .. إصابة ما ، وهى لم تحدث لى .. »

ـ « الأمر سهل إذن .. إن كل هذا حدث لـ (نجلاء) .. أحسبنا تجاوزنا مرحلة الاندهاش لأمور كهذه .. »

ـ « لكنها تنكر ! »

قالتها فى كراهية .. فى مقت .. وازدادت سرعة فكيها فى مضغ قطعة اللادن مما جعل أصوات انفجارات عالية تدوى ..

بدأت أهتم بالأمر ، فانحنيت واستبدلت بعوينات القراءة عوينات المسافات لأراها أوضح ، وسألتها :

ـ « تريدين القول إنها لم تصب بكدمات ؟ »

قالت فى عنف :

ـ « نعم .. أو بمعنى أدق : لم يصبها أحد بها .. إن هناك فى جسدى آثار كدمات وحروق كلها فى أماكن غير ظاهرة .. وهذا معناه .. »

اللعنة ! .. إن الأمر يزداد تعقيدًا ..

إن الأطباء يعرفون مرضًا نفسيًا شهيرًا هو (التمزيق الذاتى) وكالعادة يطلقون عليه اسمًا عسيرًا مثل automutilation وهو منتشر إلى حدٍّ ما بين الإناث ، وهناك مرض آخر هو انتزاع الشعر الذاتى ، واسمه اللاتينى المرعب فى حدِّ ذاته هو Trichotellomania .. وهو ـ كالعادة ـ منتشر بين الإناث ، وكل المريضات به ينكرن أنهن يؤذين شعورهن أو يدمين أجسادهن .. وبالطبع تكون أكثر الإصابات فى مواضع تخفيها الثياب حتى لا يتعرض لأسئلة فضولية ، وكثيرًا ما حيرت حالات كهذه أطباء الأمراض الجلدية الذين يحسبونها مرضًا خطيرًا لا اسم له ..

لماذا يؤذى الإنسان جسده الخاص ؟ إنه نوع من عقاب الذات أو استعذاب الألم يدل على خلل نفسى مريع ..

لماذا - إذن - تؤذى (نجلاء) نفسها ؟ إجابة سهلة جدًا : لأن هذا هو السبيل الوحيد لإيذاء (ناهد)! (ناهد) التى ظلّ لها طعم مرير فى فم (نجلاء) طيلة هذه الأعوام .. (ناهد) التى ظفرت بكل شىء دون أن تستحقه .. إن (ناهد) يجب أن تنال نصيبها من الأذى ..

لقد استنتجت (ناهد) الأمر بسهولة ودون عناء ، وفى غضب قالت لى :

- « هذه الحمقاء مجنونة تمامًا .. يجب أن تمنعوها ، وإلا لا أضمن لحظة ما ستفعله كى تؤذينى .. ربما تلقى بنفسها أمام قطار أو تشعل فى ثيابها النار .. تصوّر هذا ! إنها تحقد علىّ منذ عرفت معنى الحقد .. »

نظرت لها صامتًا ..

فى الحقيقة لم يكن كل ما قالته هراء إلى هذا الحدّ ..

لكن هل تفعل (نجلاء) ذلك حقًا ؟

* * *

صاحت (نجلاء) .

- « أقسم بالله العظيم إن هذا لم يحدث ! »

ثم نهضت مندفعة إلى رفّ المكتبة على الجدار :

- « هات لى مصحفًا كى أقسم عليه .. ! »

نهضت فأعدت المصحف إلى موضعه على الرف ، وقلت لها :

- « لا أحب أن تقسمى فى أمور تحتمل الكذب أو الخطأ .. كل هواة (تمزيق الذات) ينكرون - أو لا يعرفون - أنهم يفعلون ذلك .. »

قالت وهى تشير إلى ذراعها الملىء بالكدمات :

- « هى التى فعلت هذا بنفسها وبى .. أنت لا تعرف (ناهد) .. إنها الأنانية المجسدة والشرّ المطلق .. حتى إننى لأبكى كل ليلة حين أتذكر أن هذه هى أختى التوءم .. »

جلست إلى مكتبى ، وخلعت عويناتى ورحت أعتصر عينىّ بأناملى منهكًا ، ثم قلت لها :

- « اسمعى يا (نجلاء) .. إن علاقتكما المعقدة

هذه تحتاج إلى كاتب من وزن (دستويفسكى) الرهيب كى يدرسها .. وبما إنه مات فإننى أقترح أن تريا محللا نفسيًا بارعًا .. أعرف واحدًا هو د. (سامى) لكنه يعيش فى (الإسكندرية) .. ربما لو .. »

وفتحت عينى فوجدتها قد رحلت ..

* * *

الفصل التاسع: لا أهمية له سوى التطويل ويمكن لسريعى الملل أن يبدءوا بالفصل العاشر

كان (صلاح) هلجامة ..

و (هلجامة) هى لفظة عربية منسية لكنها فصيحة جدًا ، وتعبر باختصار عن الشخص الكذوب الخائن الجبان اللص المنافق القذر البخيل القاسى الواشى المدعى المغرور الجاهل الـ ... باختصار (هلجامة) تعنى من حوى كل نقيصة وخلا من كل فضيلة ..

ولأن (صلاح) هلجامة ، فقد غادر السجن لكنه لم يغادر عالمه الملىء بالقسوة والاستخفاف بمشاعر الآخرين ..

فقط قرر أن ينتظر حتى تسنح فرصة الانتقام ..

* * *

كانت المشكلة هى أن (ناهد) لم تعد تغادر الدار ، فإن غادرتها كان زوجها معها فى كل خطوة .. وحين يذهب زوجها للعمل كانت (ناهد) تغلق باب الشقة بإحكام ولا تخرج أبدًا أو تنظر من نافذة ..

ومن حين لآخر كان يرى أباها يدخل البناية ، أو خالها ، أو شقيق زوجها .. لقد تعلم هؤلاء ألا يتركوا (ناهد) وحدها أكثر من بضع ساعات كل يوم ..

تدريجيًا نسى (صلاح) - وهو يجلس فى المقهى يدخن الشيشة ويشرب الشاى (الكشرى) - أن عليه أن ينتقم .. صار الأمر أقرب إلى لغز مسل يتحدى الذكاء من ألغاز مجلة - كيف يؤذى أميرة تحيا فى حصن يحيط به الفرسان الأشداء فى كل صوب ؟ »

* * *

فى ذلك الصباح المشمس جلس فى المقهى يراقب مدخل البناية على الجانب الآخر من الشارع كدأبه .. كان قد وضع عوينات سوداء وأطال لحيته فى السجن ، كما قصر من شعر رأسه .. لكنه - لمزيد من الضمان - كان يمسك بجريدة يخفى بها وجهه كلما شعر أن هناك من ينظر فى اتجاهه ..

رشف رشفة من الشاى ، وسحب نفسين من الدخان :

الآن يستطيع أن يرى الأب والتوءم الآخر - القبيحة - يغادران المبنى، لكنهما لم يكونا وحيدين،

الآن يرى (ناهد) وطفلها على كتفها ، وزوجها ذا العينين الحولاوين .. يبدو أن الأسرة كلها ذاهبة لنزهة ، أو ربما لزيارة أم الزوج أو شىء من هذا القبيل ..

بحركة غريزية رفع الجريدة ليخفى وجهه ، ودقق النظر أكثر ..

كانوا يعبرون الشارع وينظرون فى اتجاه السيارات ، حين برز صبى على دراجة هوائية .. كان مندفعًا أكثر من اللازم فاصطدم بـ (نجلاء) بقوة لا بأس بها ، وهى لم تره لأنه كان يسير فى عكس الاتجاه .. سقطت أرضًا وصرخت صرخة قصيرة ..

هنا لاحظ ظاهرة غريبة بعض الشىء ..

لماذا صرخت (ناهد) بدورها ؟ ولماذا مدت يدها تتحسس كتفها ؟ إنه لم ير شيئًا يضربها ، ومن المؤكد أنها تتألم حقًا .. غريب هذا ! ربما آلم الرضيع كتفها بشكل ما .. ولكن يا لها من مصادفة !

استطاع أن يرى الزوج يوبخ الصبى ، ثم يطلق سراحه .. بينما الأب ينحنى على (نجلاء) ليرى

ما دهاها حيث جلست على الإفريز تئن .. هو ذا يمد يده إلى كاحلها ليتفحصه .. بدا ألم شديد على ملامحها ..

وانطلقت عينا (صلاح) كالرصاصة لتريا ما أصاب (ناهد) .. إنها تمسك بكاحلها وعلى وجهها أعتى آيات الألم .. لقد أرغمها الألم على الجلوس بدورها على الأرض والطفل على كتفها ، وبيدها الحرة راحت تدلك ساقها عند المفصل الملتوى ..

ما معنى هذا كله ؟

كان ذكيًا ، وكان يتمتع بغريزة الذئاب .. لهذا بدأ يفهم ما يحدث ، لكنه لم يصدقه .. هذا هراء .. إن المصادفات ..

ولم يكن يتمتع بعقل علمى منظم ، لكنه وضع منهاجًا علميًا لا بأس به لإجراء تجربة كانت ستروق لـ (ديكارت) بالتأكيد ..

نادى غلامًا مرّ به فى المقهى .. غلامًا من هؤلاء الحفاة الذين يمشون حاملين قطعة من الورق المقوى صامتين كالقبور .. وهى رسالة صامتة لمن يبغى تلميع حذائه ..

فى كف الغلام دسّ عشرة قروش ـ وهو مبلغ كان فادحًا وقتها ـ وفى أذنه همس ببضع كلمات ، شفعها بصفعة على ظهره وصيحة :

ـ « حمامة يا له ! أسرع قبل أن يبتعدوا ! »

ولم يكذب الغلام خبرًا ..

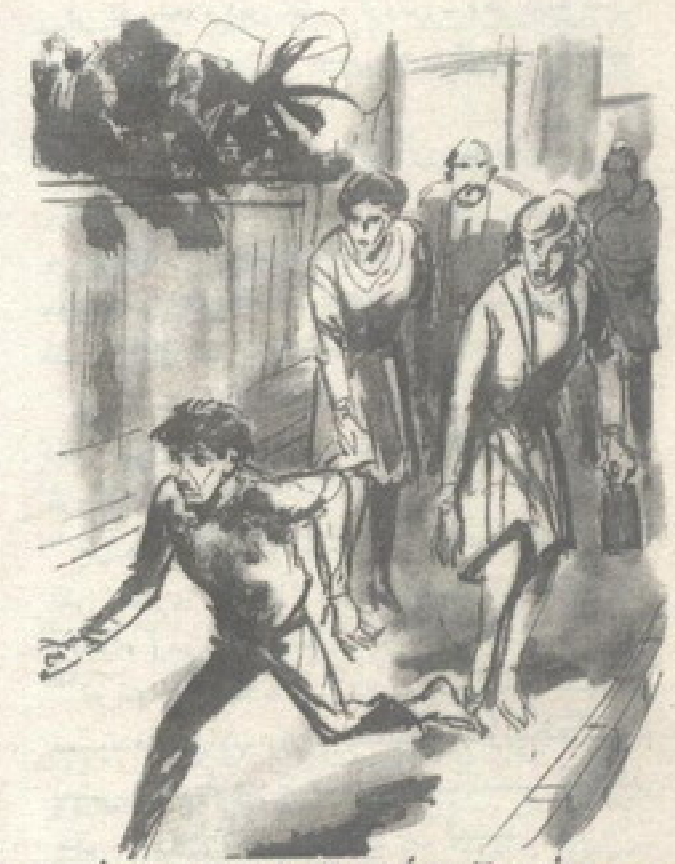
عبر الشارع ركضًا ، ثم مضى يهرول فوق الإفريز حتى وصل إلى (ناهد) التى كانت قد استطاعت التحامل على نفسها فالوقوف ..

وفجأة ـ قبل أن تفهم ما حدث ـ كان الغلام قد داس على قدمها بقدمه الخشنة الغليظة ،، وواصل هرولته مبتعدًا ..

من جديد تأوهت وقالت شيئًا ما عن تلك البهائم التى لا ترى أمامها ، وفى اللحظة ذاتها تأوهت (نجلاء) من جديد ونظرت إلى قدمها ..

ثم إنها ـ (نجلاء) ـ تحاملت على نفسها لتنهض مستندة إلى الأب وزوج شقيقتها ، وببطء بدأت تمشى .. ثمة عرج بسيط لكنها تمشى على كل حال .. وراح الأربعة يبتعدون عن المشهد ..

وفى مقعده حيث جلس يرمق كل هذا ، والجريدة


من جديد تأوهت وقالت شيئًا ما عن تلك البهائم التى لا ترى أمامها ، وفى اللحظة ذاتها تأوهت (نجلاء) من جديد ونظرت إلى قدمها ..

تدارى وجهه نوعًا ، أدرك (صلاح) أن يومه لم يضع سدى ..

إن لهذا الذى رآه معنى خطيرًا ..

إن نفعه لمؤكد ، وإن كان تفسيره عسيرًا على الأفهام .. لا يهم !

الخاسرون فقط هم من يبالون بالتفسيرات ..

* * *

بالطبع لم أعرف شيئًا من كل هذا ؛ لأن (نجلاء) و (ناهد) قررتا أن تحرمانى من أسرارهما اللطيفة ، ومن كونى المستشار الصحى المجانى لهما .. لابد أننى أبديت تبرمًا واضحًا فى المرة الأخيرة ..

وهكذا غرقت فى التفاصيل الهادئة لحياتى .. مثل الوباء الغامض الذى بدأ يحيل القوم إلى مسوخ فى تلك القرية الفرنسية ، والمومياء التى تغير مكانها ليلًا فى المتحف المصرى .. إلخ .. ذكرونى أن أحكى عن هذه القطع الرائعة فى مناسبة أخرى ..

أما الآن فيمكن القول إن شهرين مرًا دون أن أسمع خبرًا عن تلك الأسرة ، وأكون كاذبًا لو قلت إن هذا ضايقنى .

إننى أمقت العلاقات النفسية المعقدة وأشمئز منها ، لهذا لا أرتاح كثيرًا للكراهية المتبادلة بين الشقيقتين ، تلك الكراهية التى تحمل قدرًا لا بأس به من الحسد والغيرة ، وتتوارى وراء ابتسامات معسولة .. إن (نجلاء) تغار من جمال (ناهد) و (ناهد) تغار من عقل (نجلاء) ، فهى - برغم جمالها الصارخ - تشعر بأنها لم تزد على عصفور جميل الشكل فارغ الرأس ، اقتناه زوجها فى داره .. ولعلها كانت تتمنى حقًا لو ذهبت إلى الجامعة ، وحملت كراس محاضرات ، وأمضت ساعات المساء فى استذكار كئيب .. يومًا ما ستكون (نجلاء) محامية وسيطلقون عليها لقب (الأستاذة) ، بينما يذوى جمال (ناهد) فلا يبقى منه سوى عجوز جاهلة خاوية العقل ..

لم أشعر - وأنت توافقنى - باستمتاع كبير إذ أتورط فى كل هذه المشاعر السوداء القادمة من أغوار روايات (دستويفسكى) ، كما لم أتحمس كثيرًا لموضوع (صلاح) الذى يصفع الأمهات فى الأسواق ، ويزور حبيبته أمام زوجها فلا يخفى حبه لحظة .. كل

هذا يثير هلعى ويجعلنى أنكمش أكثر فأكثر .. وأتذكر كلمات المطرب الإنجليزى (كات ستيفنز) :

- « آه يا صغيرتى إنه لعالم متوحش ..
من العسير أن تحتفظى بابتسامتك فيه ..
فإذا صممت على الرحيل تذكرى أن تأخذى حذرك ..
فهو عالم متوحش لا يرحم.. وأنت مجرد طفلة ..»

لقد قالها (كات ستيفنز) ثم اعتنق الإسلام ، وصار اسمه الشيخ (يوسف إسلام) : من أهم قادة الدعوة الدينية فى (لندن) .. ويبدو أنه لم يجد مفرًا من هذا العالم المتوحش إلا فى الدين[*] ..

حقًا إنه لعالم متوحش يا صغيرتى ..

* * *

فى ذلك اليوم فتحت باب شقتى فى العاشرة مساءً ، لأسمع جرس الهاتف لا يكف عن العواء والصراخ ..

(*) حقيقة .

غريب أن اللهفة والذعر يظهران فى جرس الهاتف أحيانًا ..

هرعت لأردّ فى الظلام ، وطبعًا اصطدمت بمقعدين حطمًا ساقى ، كما سقطت المزهرية كعادتها منذ عشر سنوات ، وبرغم هذا لا تتهشم أبدًا لتريحنى منها ..

أخيرًا وجدت السماعة فرفعتها ، وبحنق صحت :

ـ « ماذا تريد ؟ »

ـ « أنا د. (محمد) يا (رفعت) .. د. (محمد شاهين) .. »

ـ « هذا لم يجب على سؤالى بعد .. »

ـ « إن (نجلاء) لم تعد من المكتب بعد .. »

شرحت له فى صبر أننى لست مسئولا عن مواعيد ذهابها وإيابها ، إلا إذا كنت زوجها ، أو سائق سيارتها الخاصة ، أو سائق حافلة المدرسة ، أو ـ لا سمح الله ـ كان لى سجل مشهود لخطف الفتيات ..

ـ « لكنها مريضتك »

ـ « ما دامت ليست مصابة بسرطان الدم ، فالأمر لا يخصنى »

قال فى رصانة من يحاول تمالك أعصابه كى لا ينفجر فى :

ـ « (رفعت) .. أنا أحدثك كصديق .. هل تجد من الطبيعى أن تتأخر ابنة أختك حتى العاشرة مساءً ، وهى لم تتأخر قط بعد الثالثة فى أى يوم ؟ وهم لا يعرفون شيئًا عنها فى المكتب » .

ـ « كلهن يفعلن ذلك ، ثم يعدن للدار دون أن يمتن ، وهى شجاعة أدبية حقيقية .. لو كنت مكانها لمتّ » .

ثم ـ قبل أن ينفجر فىّ ـ صحت :

ـ « اسمع .. هل طلبتم صديقاتها ؟ »

ـ « كلهن فى ديارهن معززات مكرمات »

ـ « وهل لها خياط أو مصفف شعر ؟ لا بد من واحد .. »

ـ « إلا هى .. إنها تفعل كل هذا فى البيت .. »

ـ « وماذا عن الأقسام والمستشفيات ؟ »

ـ « لقد فعلت هذا وأكثر .. أتحسبنى كنت أمزح منذ الخامسة ؟ »

هنا وجدت أن أفضل ما أفعله هو أن ألحق به ..

أمقت هذه الدواعى التى أترك البيت بسببها .. لو كان فى نزولى فى ساعة كهذه بعض نفع للفتاة لفعلت ، لكن الأمر هو نوع من الاستنزاف العاطفى لى .. لماذا أجلس فى دارى مستريحًا ما دام من الممكن أن أتعب ؟ حتى ولو كان تعبى بلا جدوى ..

* * *

ويمكنك بوصفك رجلا ذا خيال أن تتصور منظر الأسرة من الطبقة المتوسطة إذ جلست على جمر ، بانتظار خبر أى خبر ..

كانت (ناهد) هناك وزوجها وطفلهما الذى يعوى كالذئاب جاعلا الأمر جحيمًا بما يشيعه من توتر .. ، والأم لا تكف عن البكاء والارتجاف ، والأب هو متوفز ينتظر فقط أن نعلن أنه كذلك ..

قلت وأنا أتأمل (ناهد) فى تمعن :

ـ « أعتقد ـ وأنتم توافقوننى ـ أن (نجلاء) لم تمس بأذى حتى هذه اللحظة » .

قالت مؤيدة رأيى :

ـ « هذا أكيد .. لا أشعر بأذنى ألم .. »

ـ « هل هى خائفة ؟ »

ـ « لا .. وإن هذا لغريب .. »

ابتلعت ريقى وسألتها السؤال الأخير :

ـ « هل هى حية ؟ » .

* * *

الفصل العاشر : وهو مهم حقًا .. لكن لا يمكن فهمه دون قراءة ما سبق

ومن قال إن التطابق الشعورى بين توءمين ، يجب أن يكون مطلقًا ، ولا ينتهى فى لحظة بعينها ؟ من قال إنه يجب أن ينتهى بموت التوءمين فى لحظة واحدة ؟ إن انتهاء الترابط الشعورى بين الأختين - فى حالتنا هذه - قد يعنى موت واحدة منهما ..

يقول الإنجليز : إن عدم وجود أخبار هو خبر طيب .. أى إنه لا توجد أخبار سيئة على الأقل .. وهو قول آخر من تلك الأقوال الشهيرة التى تبدو للوهلة الأولى حكيمة ثم يتضح أنها ساذجة .. تخيل مثلاً انقطاع أخبار أخيك فى الحرب أو أبيك المسافر .. أحيانًا يكون انقطاع الأخبار خبرًا سيئًا فى حد ذاته ..

* * *

وهكذا ظللنا جالسين فى صمت لا تنقصنا سوى

أقداح القهوة السادة ، وصوت المقرئ لنكون فى سرادق عزاء ..

نهض (محمود) فى عصبية وراح يذرع الغرفة جيئة وذهابًا ، ثم وقف وصاح :

- « إن هذا كله يحطم الأعصاب .. لو كانت مخطوفة فليقولوا هذا ويخلصونا.. ولو كانت ميتة..»

توقعت أن تلومه (ناهد) لكنها لم تفعل .. هى فقط تكره الكلام عن موتها هى.. لهذا واصل الكلام..

- « فليتصلوا بنا لندفنها ! »

فى اللحظة التالية تراجع رأس (ناهد) للوراء .. أكاد أقسم أن شفتيها قد ازورقتا .. وراح صدرها يعلو ويهبط ككباس قطار بخارى .. مدت يدها إلى عنقها كأنما تطلب الهواء ، وراحت تحدث أصوات شهيق وزفير متواصلة .. كانت فى حالة (انعدام الحيلة) الشهيرة ..

وصاح (محمود) فى ذعر وهو يحدق بعينيه الحولاوين فيها :

- « د. (رفعت) ! ماذا يحدث لها ؟ »

- « إنها .. تختنق ! »



مدت يدها إلى عنقها كأنما تطلب الهواء ، وراحت تحدث
أصوات شهيق وزفير متواصلة ..

ـ « ولماذا لا تفعل شيئًا ؟ »

ـ « لا يوجد سبب لهذا .. إن (ناهد) تعكس ما تمر به (نجلاء) الآن .. إن (نجلاء) في مكان ما تواجه خطر الغرق ! »

ـ « يا للكارثة !! »

وجثا على ركبتيه جوارها ، وهو يتمنى أن يفعل شيئًا لكنه لم يجرؤ حتى على لمسها .. فقط راح ينظر لي طالبًا العون ثم لها متوسلًا ..

أخيرًا بدأت تسترد لونها الطبيعي ، وهدأت نوعًا .. واستطاعت أن تتحكم في جلستها على الأريكة .. لقد نجت (نجلاء) .. هذا واضح ..

الآن وقد اطمأننت إلى أن الصلة الشعورية لم تنقطع ، صرت أكثر اطمئنانًا إلى أن (نجلاء) حية ترزق .. هي ـ فقط ـ تعاني ، ومعاناتها تتضمن الغرق على كل حال ..

ـ « ماذا تظنه يحدث للأخرى ؟ »

ـ « لا أدري .. حقًا لا أدري .. »

* * *

في الرابعة صباحًا ، عدت إلى شقتي .. وكنت

أعرف أن النوم لن يجىء ، فهو كالحظ يجىء مرة واحدة فإن تجاهلته فيها لا يجىء ثانية .. وعلامات الشيخوخة التى حلت بى كان أولها ظاهرة (الاستيقاظ قبل الأوان) المميزة للشيوخ .. بحثت فى مكتبتى عن رواية (الأخوان الكورسيكيان) للكاتب الأشهر (ألكسندر دوما) .. وكتبها عام ١٨٦٦ .

وكان صوت أذان الفجر الأول يتردد من بعيد ، حين بحثت وسط الصفحات عن فقرة المبارزة .. ها هى ذى ..

(لوى) ـ التوءم الأول ـ يقف فى ضاحية بـ (باريس) ، ويده على زناد المسدس وأمامه خصم عتيد .. إنها مبارزة لرد الشرف من التى يزخر بها أدب (دوما) .. تنطلق الرصاصة الأولى لتستقر فى جسد (لوى) ..

فى اللحظة التالية يشعر (لوسيان) ـ التوءم الثانى ـ الذى يمتطى صهوة جواده فى (كورسيكا) بألم فظيع فى صدره فوق الضلع السادس ، ثم يخترق الألم صدره ليخرج من مفصل فخذه .. ذات مكان إصابة (لوى) ..

لقد كان (دوما) بحس الفنان المرهف يصف بالضبط ما نحن بصدده هنا ..

بعد هذا بأعوام عدة ، وبالتحديد فى عام ١٩٧٧ فى المؤتمر الثانى لدراسات التوائم فى (واشنجتون) ، أعلن المؤتمرون ما يلى :

ـ لو انقسمت البويضة الملقحة خلال الأيام العشرة الأولى من التلقيح فلا ينتظر أن يولد كل توءم بمشيمة منفصلة .

ـ « لو حدث الانقسام بعد الأيام العشرة الأولى ، يجىء توءمان متطابقان لهما ذات الشبه ، ولكن أحدهما صورة مرآة للآخر .. أحدهما أيمن والآخر أشول .. أو اتجاه الشعر فى أحدهما لليمين والآخر لليسار ..

ـ « لو حدث الانقسام بعد اليوم الثالث عشر يجىء التوءم السيامى الرهيب ، حين يشترك التوءمان فى قلب أو كبد أو صدر واحد .. والأمثلة على هذا شهيرة ومعروفة فى كتب العجائب وكتب الطب .

ـ « لو جاء التوءمان من بويضتين منفصلتين فلن

يكون بينهما تشابه .. وهو ما يسمونه بـ (التوءم غير المتماثل) أو Fratermot twims .

* * *

واحدة من كل تسعين ولادة تأتى بتوءمين .. وربع هؤلاء التوائم يكونون متطابقين .. إن (نجلاء) و (ناهد) جاءتا من بويضتين منفصلتين ، لهذا هما توءمان غير متماثلين ، لكن من الواضح أنهما احتفظتا بصلتهما الحيوية المتعلقة بالإحساس بالألم ..

إن دراسات الدكتور (لويس كيث) من كلية الطب جامعة (نورث وسترن) بـ (إلينوى) لتعتمد اعتمادًا كبيرًا على دراسات أستاذ آخر إيطالى هو (لويجى جيدا) ، ولقد قام هذا الأخير بدراسة ١٥ ألف توءم منذ عام ١٩٥٣ حتى الآن ، وقد توصل الاثنان فى النهاية إلى أن علاقات التوائم الذهنية تتباين فى مراتبها ..

فى أدنى المراتب يأتى الدافع المشترك : حين يرغب توءم فى الاتصال بأخيه لمجرد أن أخاه رغب فى نفس الشىء فى الوقت ذاته .

فى مرتبة أعلى يأتى التخاطر الذهنى وتوارد

الخواطر .. إن التوءم يفكر فى ذات الأشياء التى يفكر فيها أخوه ..

أما أعلى المراتب ـ كما يقول (لويس كيث) ـ فهى الاشتراك فى الألم فى الموضع ذاته والوقت ذاته ..

هناك نظرية مهمة طرحها (لويجى جيدا) بعد دراساته المضنية على التوائم ، وهى نظرية (ساعة الحياة) .. أى الساعة الحيوية التى تتحكم فى أقدار التوائم .. إنهم يمرضون معًا ويتألمون معًا وكثيرًا ما يموتون فى اللحظة ذاتها .. لم يكن لهذا تفسير واضح فى ذلك الوقت ، لكن الطب الحديث ـ طب التسعينات ـ عرف كثيرًا جدًا عن (الجينات) ، وعرف أننا نحمل مصائرنا وأمراضنا محددة مرسومة فى الصبغيات الموجودة بخلايانا ..

ولما كان التوءمان يشتركان فى الصبغيات ، كان من الطبيعى أن يشتركا فى المصائر والأمراض والساعات الحيوية ..

كنت غارقًا فى هذه الخواطر حين سمعت أذان الفجر .. سأصلى وأنام ، وعسى ألا .. لم لا أنتزع

فيشة الهاتف أصلا ؟ إن الأمر خطير لكنى أشعر بحاجة أكثر خطرًا للنوم ..

* * *

كما توقعت بالضبط ذهبت إلى الكلية لأجد (محمد شاهين) ينتظرنى ، وكان العرق يبلل صلعته وعنقه .. واضح أنه قضى أسوأ ليلة منذ ليلة زفافه ، وهتف بمجرد أن رآنى :

- « أين كنت يا أستاذ ؟ إن هاتفك هذا .. »

فشرحت له فى صبر أننى كنت نائمًا كجثة ، وكان عليه أن يجىء لدارى ليوسع الباب ركلا لو كان متحمسًا إلى هذا الحدّ ..

- « لم أستطع المجىء لأن الساعة كانت الخامسة صباحًا ، وليست عندى سيارة .. لقد بدأت الآلام ! »

- « (ناهد) تتألم ! »

- « وبانتظام » - قال وعيناه تتسعان رعبًا - « .. لقد ذاقت كل شىء من الدبابيس تحت الأظفار إلى حروق السجائر فى شحمة الأذن إلى الصفعات..»

وارتجف هلعًا وأخرج منديله (المحلاوى) العملاق الذى يصلح كفنا له ، فجفف العرق على عنقه وقال :

- « (رفعت) .. هناك من يعذب (نجلاء) بمنتهى الوحشية فى هذه اللحظات .. »

جلست شاعرًا بخطورة الموقف.. لم أدر ما أقول.. لماذا لا يصدق هؤلاء الحمقى أننى لا أملك أدنى فكرة عما ينبغى قوله أو عمله ؟

- « وفى رأيك من يفعل هذا ؟ »

- « لا أدرى .. »

وساد الصمت هنيهة ، بعدها قلت فى شرود :

- « حاول خنقها بإغراقها فى الماء .. كان يمكنه التمادى لكنه كان يهدف إلى التعذيب لا أكثر .. بعد هذا استعمل أسلوب الدبابيس والحرق بالسجائر .. هل لدى (نجلاء) من يكرهها لهذا الحدّ ؟ »

- « إنها كما رأيت .. لا تملك شرًا ولا نجاحًا .. فلا أعداء »

فكرت قليلا .. لن أستبعد أن تكون الفتاة فى مكان ما تتسلى بتعذيب نفسها عالمة أنها تؤذى أختها باستمرار .. إن علاقة الأختين معقدة جدًا وتحتمل الكثير ..

* * *

وفى المساء ازداد الأمر سوءًا ..

كانت (ناهد) تصرخ باستمرار بلا كلل .. وراحت تجذب ساقيها من تحت الملاءة فى اشمئزاز ، كما تفعل المرأة حين ترى فأرًا أو سحلية توشك على الجرى فوق جلدها.. كان أداء جيدًا من (البانتومايم) ، وأدركت دون جهد أن هذا ما تمرّ به (نجلاء) الآن ..

سألنى الزوج الملهوف وهو يحتضنها مهدئًا ..

ـ « ماذا يحدث ؟ إنها لا تتحمل الملاءة على قدميها »

ـ « كما ترى .. أعتقد أن من يعذب (نجلاء) يستخدم الفئران الحية الآن ..

إنه لواسع الخيال حقًا .. »

بالطبع لم نتصور لحظة أن من يعذب (نجلاء) يفعل هذا ليعذب (ناهد) .. إن الأمر واضح لك لأنك تتابع هذا كله من مقعد علوى يستوعب ويشمل كل التفاصيل .. أشبه بمن يراقب تخبط النملة فى متاهة تبحث عن فتحة الخروج منها ، أما نحن فقد كان الأمر مبهمًا بالنسبة لنا ولم نر الأمور بهذا الوضوح قط .

قال لى (محمود) وهو يعتصر طفله الصارخ ليخرسه:

ـ « هل يمكننا استخدام هذا الشعور المشترك بينهما فى العثور على الأخرى ؟ »

ـ « هذا ما أفكر فيه .. »

وجلست على طرف الفراش ، وانتظرت حتى هدأت نوعًا ثم سألتها :

ـ « (ناهد) .. أغمضى عينيك وفكرى جيدًا .. »

نظرت لى فى شك .. ثم فعلت كما قلت ..

ـ « هل تشعرين أو تشمين شيئًا ؟ هل تسمعين شيئًا ؟ »

كان هذا ينجح فى القصص دائمًا .. ستشم رائحة ياسمين وتسمع صوت طائرة وصوت قطار .. وتسمع قطرات ماء على النافذة .. عندها نستنتج أنها ـ (نجلاء) ـ سجينة فى كوخ جوار حقل ياسمين قرب مطار وقضيب سكك حديدية ، وبالطبع هناك ماسورة مياه أو ميزاب جوار النافذة .. هذا ينجح فى القصص لكنه لا ينجح فى الواقع أبدًا .. فالفتاة ـ ببساطة ـ لا تشعر ولا تسمع أو تشم شيئًا ..

ـ « لن يصلح هذا .. »

قالها د. (محمد) فى ذكاء ، فنظرت له بغلّ .. ليته لا يتحفنى باستنتاجاته العبقرية هذه لدقائق ..

قلت لها من جديد :

ـ « حاولى أن تركزى .. سنطفئ النور ونغادر الحجرة .. فكرى فى الكلمة التى تتردد الآن فى ذهن (نجلاء) .. فكرى .. فكرى .. »

قلت هذا وأنا أجذب الرجلين خارجًا من الحجرة ببطء ..

وجلسنا من جديد على الأريكة التى كستها سجادة الصلاة ، وكانت الأم قد أعدت لنا بعض الشاى كالعادة .. أما الأب فكان فى الفراش يمارس كل مهام الجثة كدأبه منذ اختفت (نجلاء) ..

قال (محمود) :

ـ « لقد أبلغنا الشرطة هذا الصباح .. »

ـ « هذا جيد .. لكن لابد من خيط يبدءون منه »

ثم رحت أقلب أفكارى كما يقلب الفأس الأرض بعد زراعة البطاطس.. طبقات أخرى لم تخطر لى ببال تظهر..

من خطف (نجلاء) ـ وهى غالبًا مخطوفة ـ لا يريد موتها .. يريد عذابها .. لا توجد طريقة عقلية ما للبحث عن (نجلاء) ..

وفجأة صحت فى حماسة حتى انسكب الشاى من يدى على الأريكة كعادتى .

ـ « انتظر ! .. لدى فكرة .. فكرة عبقرية ! »

ـ « أهنئك .. » قال د. (محمد) .

ونهضت مسرعًا إلى الحجرة ، وأنا أردد :

ـ « سنجد (نجلاء) .. وسنجدها بسهولة ! »

ـ « ولكن هلا شرحت لنا ما .. »

مددت يدى إلى المقبض لأفتحه ، حين سمعت صرخة (ناهد) تتردد فى أرجاء الغرفة الموصدة :

ـ « صلاااح ! »

* * *

هنا أجدنى مضطرًا للتوقف لأن لسانى قد أرهقه السرد ، وضوء الفجر يتسلل من خصاص النافذة .. أريد أن أنام ..

وماذا حدث بعدها ؟ بالطبع سأحكى ذلك بالتفصيل .. المفروض أن نعرف فى الجلسة القادمة ما حدث للتوءمتين .. ونعرف كيف وجدت (نجلاء) بفكرتى العبقرية .. ونعرف ما حدث لـ (صلاح) هذا ..

انتظرنى فإنى عائد كالعادة بتكملة هذه القصة ، ما لم أمت طبعًا وهو احتمال وارد ..

لكنى أحسبكم ستتضايقون لموتى أكثر من ضيقكم بقصة غير مكتملة .. ولسوف يشفع لى هذا بعض الشىء » .

فإلى لقاء ......

د. رفعت إسماعيل

القاهرة

* * *

ماوراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

روايات مصرية للجيب



د. أحمد خالد توفيق

أسطورة النصف الآخر

ثمة أسرار كثيرة وعلامات استفهام لاحصر لها تحيط بالتوائم .. وفي هذه القصة يقابل د.(رفعت إسماعيل) للمرة الأولى ظاهرة غريبة بعض الشيء .. إن للتوءمتين (نجلاء) و (ناهد) سراً صغيراً.. وهذا السرّ لايمكن إذاعته هنا على الغلاف الأخير، وإلا ماعاد سراً ..!



الثمن في مصر
ومايعادله بالدولار الأمريكي
في سائر الدول العربية والعالم

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

العدد القادم :
أسطورة التوءمين